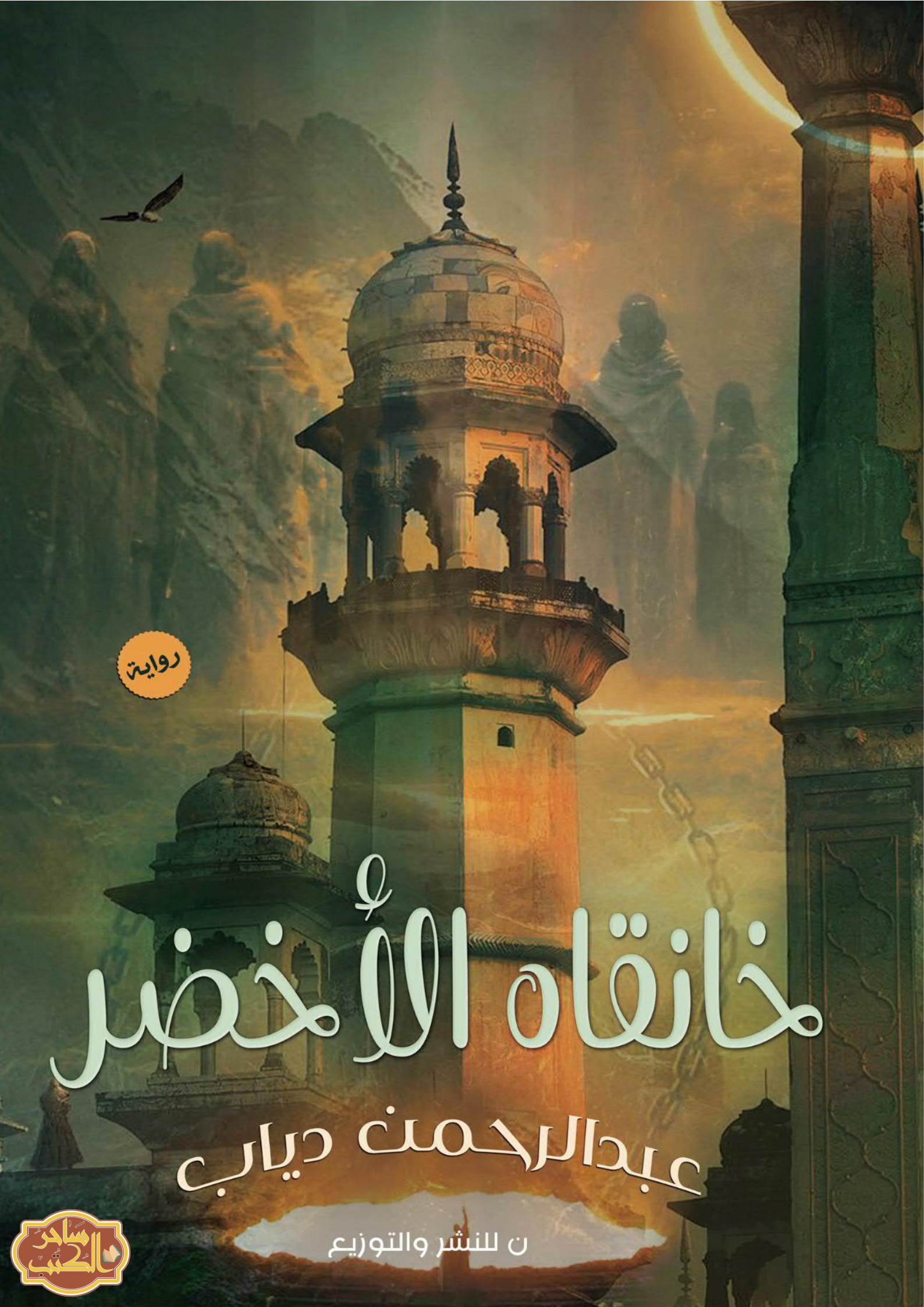

رواية
خانقاه الأخضر
عبدالرحمن دياب
ن للنشر والتوزيع
ساحر الكتب

إهـــــــداء

إلى أبطال لا يعلم عنهم أحد شيئًا ودُفنت أسرارهم معهم.

هروب واختبـــــــاء

تعالت أصوات دقات الدفوف آتية من بعيد، تراقصت أوراق الكافور والموز وجريد النخل العريض بهجةً باحتفال ينتظره العامة والأسياد، يترقبون نفحة من كرم آل بيت رسول الله قد يحصلون عليها بالذكر والدعاء في ليلة الاحتفال بمولد «أم الحسن» في جامع السيدة زينب.

صوت الابتهالات يرتفع تارة يكسر الصمت، ويخفت تارة ليسود هدوء مُغلف بأصوات أنفاس متصارعة وشجون المُحبين. صوت بدا وكأنه يتمايل ولا تحكمه وتيرة واحدة، مثل الرجل الذي يسير مترنحًا مستندًا بيده على حوائط المنازل في المنشية الصغرى بحي الحسينية كي لا يسقط.

بجسده الذي يهتز برودة وتمايله الغريب، سار وحيدًا في شارع ليس فيه إلا قطط، تأكل بواقي طعام البشر، قلبه يدق مع كل خطوة، نظر للأمام مسلطًا بصره على بيت بعينه، عليه قطع أمتار عدة حتى يصل إليه.

عريض البنية، طويل القامة، ملابسه تدل على هيبة وإن تمزقت بفعل فاعل، لا يُبالي بالاحتفال البين صوته من بعيد بقدر ما يهمه منع نزيف الدم القاني الذي سال من جرح غائر في صدره حتى وصل إلى قدمه اليسرى وشعر بلزوجته في

مركوبه وكاد أن يسقط بسببه عدة مرات.

توقف الرجل لثواني آملًا في التقاط أنفاسه بعد أن غلبه الإنهاك، وقف فاعتبره الجسد استسلامًا، استغله الألم ليتوغل أكثر داخله ويضرب حصونه ويجعله ينحنى رغمًا عنه.

سعل بقوة وجسمه ينتفض من هواء بارد يضرب جسده المبلل بالعرق، وألم الطعنة النافذة والألم النفسي الغائر داخله وهو الأشد قسوة.

أمسك صدره وشعر بالدم الدافئ يتسلل بين أصابعه كما وعيه، قبض بقوة على ردائه ثم بسط يده فجأة حين شاهد انعكاس وجهه على الأرض المبللة أسفله بعد أن كشفتها مشاعل الزيت المطعونة على جانبي الشارع.

وجهه مترب مكفهر، جمود غلب عليه وندبة فوق حاجبه إثر جرح مر عليه ساعات وتجلط وطغى على ملامحه ليشوه ملامح وسيمة تعرضت لفخ إن سقط فيه الإنسان يُكلفه روحه.

بعين مجهدة، شاهد مدابغ الجلود المغلقة التي تُعرف بها المنطقة، محال العطارة التي وصدت أبوابها للاحتفال، الجميع سد بابه عنه، هكذا شعر وأحس.

دقات الدفوف والطبول تأتي من بعيد تحاصر المكان،

تستفز مشاعره، يكاد أن يبكي قهرًا على أنغامها لكنه تماسك، أخذ نفسًا عميقًا أوجع ضلوعه فشهق واعتدل تاركًا صورته المعكوسة على المياه الآسنة شاهدة على وجوده، متمنيًا أن تظل موجودة لفترة لتؤكد وجوده هنا لو انتهى أجله المكتوب.

خُيل إليه أنه يسمع همسًا حوله كنغمة ملاك الموت حين يداعب نفوس من وطأت قدمهم أرضه يجذبهم إليه مستسلمين، حاول المقاومة وشد على قدميه ليثبت، زاد في خطواته المترددة، مترنحة مثل رؤيته، متخوفة كما روحه. البيت يقترب وعليه فقط أن يطرق ليفتح الشخص المراد، لديه يقين أنه لن يموت الآن، ليس قبل أن ينتقم.

«المدد والعون يارب العباد» رددها بشفاه مرتجفة، وخطا مجددًا. تبقت خطوات قطعها باستماتة انتهت بسقوطه أمام باب خشبي من الأرو المزخرف بالأحمر والنقوش الإسلامية.

مد يده وطرق مرة، جسده يرتجف، طرقة ثانية ثم استدار بجذعه مواجهًا الباب كي لا يسقط، كاد أن يطرق الثالثة لكنه توقف بعد أن سمع صهيل خيول تأتي من نهاية الشارع.

شاهد بنصف عين فرسان تمتطي الأحصنة، خوذتهم المعدنية، ردائهم أسود، فكر عقله لوهله. هل هم أتباع ملاك الموت قادمين لحصد روحه؟ استوعب أنهم بشرًا مثله،

يبحثون عنه بجنون بعد أن هرب، سمع سباب بعضهم ووعيد آخرين. زاد الارتجاف في جسده، ودفعه لطرق الباب مرة ثالثة بخفوت كي لا يُسمع صوته.

سمع صوت أحد الجند يقول لآخر بصوت جاف، حاد، خالي من المشاعر «لم يكن لديه وقتًا للهروب ولا سبيل غير هذا الشارع، فتشوا المكان بأمر شيخ البصاصين».

شعر الشاب بقوته تتسلل من جسده هاربة إلى الأرض التي مادت به ودارت. أراد أن يصرخ في صاحب البيت أن يفتح ولم تسعفه الكلمات، خذله لسانه كما خذله الآخرين قبل ساعات، مد يده للمرة الأخيرة وصوت الجند يقترب «إن هرب ستعلق رؤوسنا على أبواب المحروسة».

سقطت يده بجانبه معلنة ضعفه وخوار قوته، وقبل أن يرسم الإبتسامة على وجهه ليراها قاتليه إن وصلوا إليه، شعر بالباب يتزحزح إلى الخلف ويد تمسك بكتفه وتشده إلى الداخل بسرعة.

***

تراقص ضوء شمعة وحيدة في المكان، نثرت وهجها الأحمر لتكشف رؤية بسيطة توضح تفاصيل البيت. شعر الشاب بشيء ثقيل يوضع على جسده وهو مستلقي أرضًا،

سرى دفء خفيف في جسده، ويد تُعدل جذعه ليجلس بروية، أحس بكوب من الفخار الدافئ تصاعد منه بخار طيب الرائحة يوضع في يده.

قرب الكوب من فمه وتحسسه بشفاه كمن يُقبل حبيبته بعد اشتياق، تذوقه، طعمه طيب، مشروب كراوية قادر على إذابة الثلوج في الجسد المُجمد، نظر إلى مضيفه الكهل، وجهه متغضن، إبتسامته آمنة، رفيع ويرتدي فوق رأسه عمة خضراء وعباءة امتزجت فيها الأبيض وخطوط خضراء بسيطة، أنيقة.

الشيخ عرابي، الذي لجأ إليه عدة مرات فلم يخذله وها هو ينقذه.

شرب نصف الكوب وبدأت الكلمات تحل على شفتيه بعد عناء: «شكرًا لك».

أتبع جملته بنظرة ممتنة قابلها الرجل بهزة رأس حانية وربت على ظهره وخرج من الغرفة ثم عاد بعدها بثواني وفي يده مسند قطني ألوانه زاهية، وضعه خلف رأس المصاب ليستريح.

ظل الشيخ عرابي ينظر إلى الشاب لدقائق ثم تحدث بنبرة خافتة، هادئة:

-المكان لا يليق بك يا شمس الدين لكن لا بديل عنه إلى حين العثور على مكان أفضل.

ابتسم المصاب وأكمل شرب الكراوية وقال بعرفان وشكر:

-يكفي أنك انقذت حياتي يا طيب، أرى أن الأمان الحقيقي يوجد في منازل الكرماء وليس قصور الأمراء.

رد الرجل مؤكدًا على كلام الشاب:

-لا أمان إلا حين يرحلون عن المحروسة. وأشاح بيده وأكمل: دعنا عن هذا الحديث، عليك الراحة والاستعداد لتهريبك إلى الصعيد.

ابتسم الشاب بحسرة وتساؤل:

-منفى الصالحين!

أشار عرابي بيده وكأنه يدافع عن وجهة نظره وقال:

-كُلها أرض الله، وغضب كبير البصاصين عليك لن يردعه إلا اللجوء إلى العربان والاختباء وسطهم إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، علمت بما حدث، عرفت أنك رفضت الأمر فكان جزائك الموت عقابًا.

وأكمل عرابي بفخر: لكن يبدو أنك لست طيرًا سهلًا، جارح أنتَ وضاري إن مسك سوء.

حاول شمس النهوض فاحتج جسده ألمًا ولكنه لم يبال وقام مستندًا على يديه الاثنين وواجه الشيخ وقال بنبرة حاول جعلها قوة ولكنها خرجت ضعيفة، مهزوزة:

-الشجاع لا يهرب من قدره، ولو هرب سيلاحقه قضائه ولو اختبأ في باطن الأرض، أريدك أن تساعدني يا شيخ عرابي في المكوث قرب قلعة الجبل، أريد الانتقام وكشف خطة كبير البصاصين للتخلص من الأمراء، أريد فضح المؤامرة.

أماء الشيخ برأسه:

-قولك حق، وكنت أعلم أنك لن تهرب، فأنت غيرهم، أنتَ مصري ابن مصري، والدك الشيخ هلال كان محقًا حين رباك على السيف والقرآن، لكن يا ولدي الهروب قد يكون نصرًا مؤقتًا لتستعد للقادم، وأنت يا شمس الدين إن بقيت قرب القلعة سيشتم رائحتك البصاصون والعسس، الفرسان يبحثون عنك الآن، وكل أهل المعمورة يعلمون شكل البصاص شمس الدين الذي رسخ الحق والعدل طوال فترة عمله.

قاطعه شمس الدين بلهجة حادة بعض الشيء:

-الهروب جُبن، وكذب من قال غير هذا، من يرحل إلى الصعيد وينضم للعربان ينتهي أمره منسيًا، تتوالى عليه الأيام والشهور والسنين ولا يدري فيما مضت، أيام الجبناء

فرس جامح لا يتوقف إلا بموتهم، لا يرون الطريق ولا يشعرون بلذة الرحلة، وأنا لن أموت إلا بعد كشف المؤامرة والانتقام ممن فعلوا بي هذا.

ظل الشيخ عرابي صامتًا لثواني مرت وكأنه عقود، وقال بيأس واضح:

-سنذهب إذن إلى خناقاة الأخضر، آمنة لك إن استمعت إلى نصائحي وتوجيهاتي ولم تعاند برأسك، مكان لا يراه الغرباء ولا يدخله أحد بدون أذن، ستكون فيها إلى أن تفكر في خطوتك الجديدة.

بدا على وجه شمس الدين علامات التعجب والاستغراب، وسأل:

-خانقاه الأخضر! لم أسمع عنها!

ابتسم الشيخ عرابي ورد بثقة:

-ولن تسمع عنها إلا مني أو من أهلها وهؤلاء لا يخرجون منها ويقدسون سرها.

زاد التساؤل على وجه شمس الدين:

-لماذا، أين هي؟!

أجاب عرابي بغموض واقتضاب:

ستفهم. وأكمل بهدوء: لكن لكل آن آوان.

***

أنياب السلطـــــة

مررت النوافذ الطويلة الملونة والمزخرفة في القاعة الضخمة ضوء الشمس لينعكس على نهود وأرداف لراقصات حضرن خصيصًا للترويح عن السلطان وحاشيته. تناقل الخاصكية والجواري صواني الشرب في كؤوس طويلة حمراء وزرقاء تلتقطتها أكف المدعين وتنهمر مثل سيل لا يتوقف في جوفهم.

السجاد فاخر جاء من بلاد فارس، رائحة العود والمسك تفوح في المكان، أباريق الشرب النحاسية تتراقص فوق ٦ موائد ارتصت بجانب بعضها البعض جلس حولها عشرات الأمراء يصفقون وتتراقص أكفهم نشوة أمام السلطان حسام الدين لاجين الذي جلس على كرسيه بثقة وتجبَر وبجانبه صندوق من الأبنوس الأسود مكسو بالقطيفة الحمراء يقبع داخله مصحف عثمان بن عفان الذي يلقي عليه كل والي القسم ليحمي البلاد ويصون أرضها ويرعى شعبها ثم سرعان ما يعود المصحف إلى علبته ويبدأ الوالي لعبته.

وقف رأس نوبة وحراسه بنظام حول السلطان والأمراء الذين ينظرون بشبق وشهوة إلى أجساد الراقصات اللاتي تعرى بعضهن، فيما تصاعدت هتافات بعض سادة البلد يطلبون المزيد من مشروب العناب كأنه سُكر لهم.

أما السلطان فلا يبالي بكل ما يراه بل سرح فكره في خطته لبسط نفوذه وسلطته على البلاد بعبادها ومماليكها الذين حضروا مرتزقة ثم أصبح لهم السلطة.

يعلم أن في لعبة السلطة ليس فيها إلا قلة من الطرخان وكثير من الجثث المدفونة. طرخان متقاعد من دون أن يكون مغضوبًا عليه من السلطان ويقيم حيث يشاء، وهؤلاء لا يرى ممن حوله من يستحق الوصول إلى تلك المرحلة، لأنه يعلم من داخله أن الكل ينتهز الفرصة لإزاحته وصعود رجل آخر بدلًا عنه، رأى هذه اللعبة مرارًا وتجرع كأس الخيانة عدة مرات إلى أن تعلم أصول السلطة وأهمها الإطاحة بالأقوياء وكان أولهم زوج شقيقته الجبري الذي تآمر مع بعض الأمراء مقابل السماح له بأن يكون المحتسب.

علم المؤامرة من جبران الدمشقي الذي كافأه بعدها وعينه شيخًا للبصاصين.

مذاق العناب لاذع، سكره قليل، سالت على شفته قطرة حمراء قانية وبدا كوحش مفترس انتهى للتو من افتراس ضحيته، لا يدري هل نجح البصاصين في التخلص من الجبري أم لا لكنهم إن فشلوا فسجن خزانة شمايل ينتظرهم، ذلك السجن الذي إن دخله إنسي خرج بلا روح، سجن ومنفى لمن يعترض، ومدفن لمن يأمر بالخلاص منه.

اقترب منه نائبه الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري فاعتدل له برأسه في إشارة ليتكلم.

قال له المنصوري بأنفه الأفطس ووجهه المحمر من أثر الخوف والسُكر: «بالك مشغول يا سلطان المحروسة».

نظر إليه السلطان وحاول أن يبتسم وقال بصوته الأجش المعروف:

-حدثني عن أحوال التجار وتجارة الأمراء.

همّ نائبه بالاقتراب ولكن السلطان أشار إليه بيده آمرًا أن لا يقترب فبلع الرجل ريقه وقال:

-كما أمرت، سيطر بعض الأمراء على تجارة البهارات القادمة من الهند، والتجار من رجالنا أتحنا لهم الفرصة لاحتكار بعض الأعمال مقابل الولاء والطاعة وإقناع العامة بدفع الضرائب حين تزيد.

«وجبران»؟ قالها السلطان وهو يشرب من كوبه الفضي ورمق المحتسب بحدة جعلت الرجل يرتجف رغمًا عنه، وقال:

«شيخ البصاصين يقول إن رجاله في أثره ولن يعودوا إلا برأسه».

اكتفى السلطان بالنظر لثواني إلى المحتسب وقال مهددًا وهو يعتدل ليكمل مشاهدة الرقص:

-إن عادوا بغيرها قل لكبير العسس أن يعلق رؤوس ٣ منهم على باب زويلة.

ازدرد الرجل ريقه، انكمش في نفسه، ورد وهو يرفع يديه على رأسه تبجيلًا للسلطان: «أمر مولاي».

***

ضريح ومسوخ

دوى صوت رعد جلل، هز المكان بسطوته، انتفض جمع من الناس يسير بروية متجهين إلى ربوة يعلوها ضريح، لا تظهر ملامحه من الظلام القاتم.

وجوههم مكفهرة، أبدانهم نحيلة، يرتدون ثياب خاطت من الخيش تحمي من البرد بعض الشئ، لكنها لا تحمي من الاستهزاء بملابسهم إن مروا على العامة.

الأرض طينية، الضوء ينبعث من مشاعل في أيديهم تكشف ما أمامهم لأمتار قليلة صعدوها ببطء مع بدء انهمار المطر، يحيطهم صمت لا يكسره إلا رعد عنيد وبرق حل ضيفًا فجأة دون استئذان، ضرب السماء بخيوطه الحمراء.

بدت كمسيرة جنائزية، رؤوس ٣ رجال منكسة، رابعهم طفل أصلع الرأس نحالته واضحة كعصا نبتة رفيعة، انسالت قطرات المطر على رأسه وتخللت ملابسه البسيطة لكن عينيه تقول إنه لا يبالي بهذا بل يشغل باله شئ آخر.

مظهرهم غريب، تقسيمة السير أغرب، رجل في الأمام وآخر في الخلف والثالث بجانب الطفل، ترتعش ملامحهم مع ضربات البرق وهزيم الرعد وسقوط الصيب، يقتربون من الفتى إلى حد الالتصاق وكأنهم يحمونه من غضب الطبيعة.

الطفل بادي عليه الهدوء، خطواته مترددة، ينظر إلى الربوة أمامه مع كل خطوة بخوف واضح ارتسم في عينيه الواسعتين، وكأن موته المنتظر ينتظره هناك فاتحًا ذراعيه له، مُرحبًا به بمشاعل توزعت على جانبي المكان مثل فاه مفترس مفتوح يترقب ضحيته.

مرت الثواني، اكتست الأقدام بالطين الطري، واتسخت أطراف الملابس السفلية بالمياه العكرة، زاد العبوس في الوجوه واكتسح الملامح.

قبل الوصول إلى الدرجات الرخامية التي تقود إلى الضريح سمع الأربعة هسيسًا غريبًا قادمًا من السماء، توقفوا، والتقت الأعين بالأعين وتصاعدت ضربات القلوب وبدأ تسارع الخطى للأعلى، ومع أول خطوة على الدرج سمعوا صوت سقوط شئ على الأرض خلفهم.

التفتوا ونظروا وعلت الشهقات من الحناجر، غراب ضخم سقط ميتًا. قبل استيعاب ما حدث ارتفع صوت الهسيس أكثر حتى نافس الرعد، اكتست السماء بطيور مختلفة أشكالها وألوانها، رفرفت بقوة كمن يصارع للنجاة وسط خيوط البرق التي تضرب ولا تبالي، ثم سقطت جميعها ككتلة واحدة على الأرض ميتة أمامهم بصوت هادر ومشهد مخيف.

انتفض الطفل وسطهم، اغرقت عيناه بدموع أبت النزول وألجمها الخوف، أمسك بيد الرجل الذي بجانبه وشاب شعره وتجعد وجهه، فبادله المسكة بقوة مشجعًا، مواسيًا.

ذو الشعر الأشيب يعلم ماذا تعني رسالة سقوط الطيور موتى أمام الضريح في تلك الليلة، يعلم أن القادم أسوأ وأكثر شرًا، وعليهم الدخول بسرعة وتنفيذ الطقوس قبل أن يزيد الوضع سوءًا.

«هيا، اصعدوا قبل أن يغضب» أتت الجملة من أمامهم، قالها شيخ طاعن يتكئ على عكاز خشبي بمقبض بني تبينوا لونه بصعوبة، يقف أمام بوابة الضريح الضخمة، نظروا إليه وبدأوا الصعود بسرعة إلى الأعلى.

الأشيب يمسك يد الطفل ويجرجره خلفه والصبي ينظر إلى الوراء بخوف كمن ينتظر ضربة غادرة من شئ ما.

سمعوا عويل تصاعد فجأة من أشجار حول المكان، ومن بين فروعها وأوراقها العريضة ظهرت عيون حمراء ترصد، تترقب.

انتفضت الأجساد مجددًا، وامتقعت الوجوه أكثر ولكن الخوف لم يكبل أقدامهم التي استمرت في الصعود حتى وصلوا إلى الدرجة الأخيرة ووقفوا أمام الباب الخشبي الذي

يتعدى طوله المترين، عرضه يكفي لمرور فيل ضخم، حُفرت عليه كلمات عديدة متداخلة بلون ذهبي لا تتضح معالمها بسبب القدم.

دفع الكهل ذو العكاز الباب لينفتح ببطء مصدرًا صريرًا عاليًا ثم دخل الجميع تواليًا. الخوف كاسح يكاد يُشم في الهواء، والمكان به زنخ واضح وعطن، الدفء مسيطر لا يدرون من أين يأتي رغم الطقس البارد في الخارج.

الضوء خجل أن يكشف ملامح المكان ولكن ظهرت بعض معالمه، الأرض خشبية مهترئة من أثر السنين، والجدران لا تقل حالتها سوءًا عنها وإن رُسمت عليها طلاسم غريبة مزجت بين الأرقام والأشكال الهندسية وأمامهم وقف الكهل ذو العكاز.

طغى الصمت، ساد الترقب، الطفل يرتعش والرجالين اللذان كانا معه في الأمام والخلف تقدما حتى وصلا إلى منتصف الضريح، أمامهما بئر مكشوف ينبعث ضوء أخضر خفيف من داخله، وبجانبه غطاء ثقيل حجري على الأرض.

وصلا إليه وخلع كل منهما ردائه الذي ثقل من مياه المطر فبدا جسديهما عاريين إلا من قطعة قماش تستر العورات، ركعا على الأرض ومدا أعناقهما إلى الأمام لتكون داخل البئر ثم أدار أحدهما رأسه ونظر إلى الطفل نظرة حملت مزيج

من الحُب والأسف. بلع الصغير ريقه بصعوبة وبدأت دموع صامتة في النزول متحررة.

مرت ثواني على نفس الحال وكأن الرجل يشبع نظره من الطفل، إلى أن أغمض عينيه وأعاد رأسه إلى داخل القبر المفتوح وتقدم الكهل ومد طرف عكازه إلى أسفل القبر وتمتم بكلمات غير مسموعة.

اهتزت الأرض فجأة، تصاعد دخان أخضر خفيف من القبر المفتوح، ثم سمعوا أنينًا قادمًا من الأسفل وكأن القبر بوابة تقود إلى الجحيم، وبعدها ظهرت بسرعة البرق يد مخلبية سوداء مشوهة خرجت من القبر المفتوح وأطاحت برأس الرجلين مرة واحدة لتسقطان داخل القبر وتنهمر الدماء للأسفل.

شقت صرخة الطفل المكان، اتسعت عينياه من الصدمة، اختلطت مشاعره، يعلم أن هذا سيحدث ولكن لم يتخيل أن يكون بهذه القسوة.

لم يدري بنفسه إلا وهو يتحرر من العجوز الذي يمسك يديه ويركض ناحية الرجلين المنحورين اللذان سقطت جثتيهما إلى القبر العميق لتختفي، إلى أن لحق به الكهل ذو العكاز وأمسك به قبل الوصول واحتضنه بقوة فيما دفن الصبي رأسه في صدر الرجل وهو يصرخ حتى بح صوته

وأخذ يسعل ونظر إلى القبر المفتوح ليجد الضوء الأخضر قد اختفى، وظهرت خيالات سوداء تتراقص حوله وتتشكل في هيئة ثعبان ضخم تلوى عدة مرات ونظر إليه فاتحًا فمه، مُظهرًا نابيه ثم تبخر فجأة!

ضربت الصدمة الطفل وأخذ يتمتم ووعيه يسيل منه «أبي، أبي، لا تتركني يا أبي»!

ظل يردد العبارة بنبرة خفيتة وهو يفتح عينيه لتقابله ظلمة الليل وضوء القمر الخجول الذي تفادى غيوم الليل لينسال من النافذة الخشبية مقابل سريره كاشفًا عن ملامح غرفته.

دعك عينيه وأمسك عمامته السوداء المتروكة التي تعود على تركها بجانبه، ووضعها على رأسه ذو الشعر الطويل وهو ينهض بتثاقل يلتقط كأسًا مزخرفًا من الماء موضوعًا على طاولة من خشب البني المحروق تتوسط الغرفة.

تجرع المياه بتهمل ونظره شاخص إلى خارج المكان والزمان، ذهنه مشغول، الكابوس نفسه يراوده كأنه يُذكره بما مضى، يُعيد عليه الألم تارة تلو الأخرى حتى أصاب الحزن جسده وأنهكه بضربات لم يقو على صدها رغم مرور السنين.

هز رأسه كمن يريد نفض الذكرى عن رأسه ووضع الكوب

واقترب من النافذة الخشبية ينظر إلى الخارج.

«سمعت صراخًا وقلقت، هل أنت بخير»؟ نظر خلفه ووجد الشيخ عرابي يقف مترقبًا.

اكتفى بكلمة واحدة ردًا على المُسن: «كابوس».

هز الشيخ عرابي رأسه وخرج وقال بحسم «صباحًا نرحل إلى خانقاه الأخضر».

ارتعش جسد شمس الدين وتذكر الكابوس والضوء الأخضر الذي شاهده خارجًا من القبر وشعر بوجود رابط ما بين ما حدث في صغره وما سيحدث له خلال الأيام المقبلة.

عاد إلى مخدعه وبدأ يربت على يده اليمنى باليسرى في عادة تخفف عنه التوتر تعلمها من صغره، وتذكر وجه والده وهو يموت أمامه وشعر بدمعة تفر من عينيه مسحها ببطء وأغلق عينيه متألمًا.

***

داعبت أشعة الشمس الهادئة ببطء وجنتي النائم، تسللت من فتحة صغيرة لشباك خشبي تقاطعت فيه أشكال الأرابيسك.

فتح شمس الدين عينيه فور وصول الضوء إليه ونظر

حوله ليستوعب أنه في بيت الشيخ عرابي.

نهض بتثاقل وقد دب فيه ألم الأمس وخرج من الغرفة ليجد أمامه الشيخ الطاعن جالسًا على الأرض وأمامه مبخرة من النحاس يضع فيها توابل وأعشاب جعلت أدخنة بيضاء تتصاعد لتفوح في المكان برائحة عطرة.

شعر به الشيخ رغم أن شمس الدين لم يتحدث، التفت إليه ونهض بإنهاك وأشار إلى صينية على الجانب بها زاد وطعام بسيط «كُل ما يسد رمقك فالرحلة ستطول لأننا سنتحرك الآن».

«هل الخانقاه بعيدة»؟ سأل شمس الدين وأجاب الشيخ عرابي: «قريبة ولكن دخولها بعيد». لم يفهم شمس الدين العبارة لكنه لم يعلق، بل اتجه إلى الصينية والتقط بضعة لقيمات غمسها في العسل والجُبن وتناولها وأثر الأرق بسبب كابوس الأمس جليًا على وجه المنتفخ وعينيه الحمراويتين.

دقائق وانتهى من طعامه واغتسل وتجهز للرحلة، فيما وقف أمامه الشيخ ينظر إليه متفحصًا وألقى إليه عباءة طلب منه ارتدائها وفتح الباب ونظر في الخارج يطمئن على هدوء المكان ثم أشار إلى شمس الدين للخروج خلفه.

الشارع يعمه السكون بعد ليلة حافلة زار فيها الأهالي

السيدة زينب، سارا ببطء وعيني شمس الدين تترقب كل حركة، كل حارة أو منزل. وصلا إلى منتصف الشارع وتوقفا فجأة وتصاعدت ضربات قلوبهما بعدما سمعا صوتًا آمرًا خلفهما يقول «توقفا»!

***

البصـــــــاص

تصاعدت دقات قلب شمس الدين، انتفض جسده بشكل خفيف، كاد أن يخرج سكينًا مخبئًا في بنطاله الرمادي الواسع وينحر السائل إن كان من البصاصين لكن الشيخ تعامل بهدوء. التفت ونظر إلى الرجل الذي وقف خلفهما متأهبًا.

«ماذا تريد يا ولدي»؟ قالها الشيخ عرابي باستكانة. سأله الرجل الذي يرتدي ملابس البصاصين بالفعل: «أين تسكنان»؟

أشار الشيخ إلى بيته وقال بهدوء وثقة: «هنا».

نظر الرجل إلى البيت وأعاد نظره إلى شمس الدين الذي يخفي رأسه بغطاء العباءة: «ومن هذا»؟

رد الشيخ بصوت مليء بالحسرة والألم: «ابن اخي، علي، مصاب بالطاعون». وأكمل بنبرة سريعة: تعلم أن الوالي أمر بإبعاد المصابين عن الأصحاء ومن لم يفعل هذا نال الجزاء.

وأضاف وهو يقترب من شمس الدين: «هل تريد أن ترى وجهه. هيا اقترب». ظهر الخوف على الرجل وتراجع خطوين إلى الخلف.

«السلام عليكم يا شيخ عرابي». قالها أحد الأهالي وهو يمر بجانبهم فبادله الشيخ التحية.

بعثت تحية السلام بعض الهدوء والطمأنة للرجل ما جعله يشير إلى الشيخ باستكمال السير وعاد إلى تفقده المارة بحثًا عن شمس الدين الذي تنفس الصعداء واستكمل السير مع عرابي مارين من أسفل باب الحسينية الضخم الذي يصل من باب الفتوح إلى ميدان الجيش لينطلقا إلى وجهتهما الأخيرة.

***

خارت الناقة وتمايلت براكبيها الشيخ عرابي وشمس الدين، تمخطرت في سيرها سالكة الدرب السلطاني باتجاه ما يطلق عليها صحراء المماليك، على الجانبين أحجار ضخمة متراكمة، يتوسطها طريق ترابي يربط قلعة الجبل وشرق الفسطاط.

مرا على ميدان القبق الفسيح وشاهدا تدريبات الجند والفرسان، وُضعت أخشاب الرماية المثقوبة من أثر التدريب عليها وتعالى صياح التحفيز والتشجيع والتحدي.

استكملا السير وظهرت أمامهما تلال الصحراء والصخور ممتدة تنافس في هدوئها الجبانات في المنطقة الشرقية. استمرت الرحلة نصف ساعة حتى توقفا بجانب مدق ترابي على اليمين يقابله بعض المنازل تتراص من بعيد وفي الخلف تبدو من بعيد قلعة الجبل بشموخها وأسوارها العالية وعلى يمينها صخور المقطم العالية الراسخة تطل بحجارتها

الصخمة لتراقب المحروسة.

نخ الشيخ الناقة وتهادت نازلة حتى ثنت ركبتيها وهبط منها بحرص ونظر حوله يطمئن على عدم وجود شاهدين أو مارة، ثم أمسك بالجمل وبدأ يجذبه بقوة للدخول بعيدًا عن الطريق.

لفت نظره وجود حمار على يمين الطريق لكن لم يكن معه صاحبه، ظن أنه تائه فلم يهتم واستكمل ما يفعله.

فكر شمس الدين في النزول ومساعدة الشيخ ولكن إشارة من الكهل جعلته يلغي الفكرة، استمر الشيخ في السير ببطء ساحبًا الناقة بمن تحمل في طريق لم يره الشاب قبلًا ويبعد عن درب المسافرين عدة كيلو مترات.

استمر السير وزاد التفكير والتوتر في نفس شمس الدين، يريد أن يفضح مؤامرة شيخ البصاصين. الجبري لم يتآمر على الوالي، وحين جاءه أمر قتل الرجل لم ينفذه لأنه حين عمل بصاصًا لم يقسم من داخله اليمين على قتل بريء.

لا يدري من يواجه؟ المحتسب الذي يدير البلاد ويسيطر على عقل الوالي ومعه شيخ البصاصين الجديد أم الوالي الذي تولى الحكم قبل فترة قصيرة ويبدو أنه باع دينه ودنياه لأجل عرش لا يدوم، عرش غادر تقاتل عليه الآلاف

على مر السنين لكنه أبى أن يستمر لأحد.

شعر شمس الدين أن الرحلة طالت، تقلصت أمعائه وتشابكت احتجاجًا، تشنجت أطرافه مع كل ترنح للناقة التي شعر بها تصعد وتهبط دروب لا يعلمها إلا الشيخ عرابي صاحب السر الكبير.

الشيخ عرابي الذي كان صديقًا لوالده الروحي الذي رباه بعد أن ماتت عائلته وهو صغير، فنت أسرته عن بكرة أبيها فلم يبقى إلا هو يواجه الحياة بضعفه.

عمل شمس حمالًا من صغره في السوق، تعود جسده على المشقة في سن التاسعة، إلى أن شاهده التاجر عثمان وطلب منه أن يعمل عنده في محل التوابل، أحبه مثل ابن له خاصةً وأنه لم ينجب، ثم أدخله بيته ومن حينها لم يخرج منه.

تعلم اللعب بالسيف وحفظ القرآن والأحاديث وتعود على القوة والجلادة وحين قابله الشيخ عرابي لأول مرة في زيارة لوالده، جلس بجانبه وابتسم له ولمح في عيني شمس كآبة وحزن بدون سبب.

قال له حينها بصوت دافئ:

-تصنعنا الأيام الثقيلة، تُشكلنا، تضع فينا بذورًا تنمو مع أوجاعنا وتتفرع منها أغصانًا تساعدنا في تحمل القادم، فلا

تهرب من أوجاعك فتصبح لينًا، ضعيفًا، ولا تفتح لها صدرك متحديًا فتنغرس فيك وتترك أثرها.

وانخفض صوته وزاد: تقبلها، ضعها في أماكنها الصحيحة داخلك فلا تؤذيك، بل تُذكرك كلما تحسست روحك بما واجهت.

من حينها غيرت تلك الكلمات طريقة تفكيره، شعر براحة داخله، تقبل الألم والمواجهة، كبر وزادت هيبته وشهرته كابن بار لـ عثمان وتاجر ماهر ورجل يؤمن بالمبادئ حتى سلك طرقًا عديدة وساعده والده في أن يُدخله بلاط السلطان السابق كتبغا الذي أطاح به الأمراء قبل أسابيع وشاهده شيخ البصاصين الذي سبق الحالي واختاره ضمن جنده وتلقى أفضل تدريب حتى ذاع صيته وزادت شهرته كمدافع عن الضعفاء من الناس، يمنع عنهم شر الآخرين ويبتسم في الوجوه ولا يستغل سلطته وقوته للإيذاء، وهي حالة شاذة لمصريين تعودوا على أن يكون صاحب السلطة آمرًا قاسيًا لا قلب له أو ملة.

«وصلنا يا ولدي». سمع الشيخ عرابي يقولها بنبرة خافتة وكأنه لا يريد إزعاج سكون الصحراء بصوته الجهور.

نُخت الناقة ونزل شمس الدين يدلك ركبتيه من إثر الثني الطويل، مط جسده الممشوق وهرش لحيته القصيرة ونظر

حوله مستطلعًا.

صحراء جرداء، تلال رملية انتشرت على على مرمى البصر، مخابئ للعقارب والثعابين تطلق جيوش الزواحف تقتص من مارة ضائعين أو قطاع طريق قد يقودهم الحظ العاثر إلى هنا.

«أين الخانقاه يا شيخنا»؟ تمتم بها شمس الدين متعجبًا. لا يرى حوله أي شئ سوى صخرة رمادية منحوت عليها أشكال غريبة وحروف لا يتبين ملامحها، اقترب منها الشيخ عرابي وأخرج من جيبه خنجرًا معقوفًا دسه بين الصخور وأخرج بعض فتاتها وأمسك بها في يده ونثره إلى الأعلى بشكل مفاجئ وهو يتمتم بكلمات لم يتبينها الشاب.

مرت ثواني ولا شئ حدث، ظن شمس الدين أن الشيخ قد ُجن، كاد أن يتهكم أو يسخر مما فعله الكهل لكن قبل أن يتفوه بكلمة شعر بالأرض تهتز من تحته بشكل غريب، وتصاعدت عاصفة رملية أمامه قادمة من بعيد رغم استقرار الأجواء قبل ثواني.

ارتعش جسده وانتفض، نظر حوله بخوف. الشيخ عرابي يقف بثقة، عينيه على العاصفة التي تقترب ولا يبالي، لم يتحرك، أمسك يديه الاثنين.

مادت الأرض بشمس فجأة وسقط على الرمال وشعر بلهيب يكاد أن يحرق وجنته الملاصقة للرمل، شاهد وهو على الأرض العاصفة تدور وتقترب منهما، أراد أن ينادي على الشيخ عرابي فلم تخرج منه سوى همهمة ضعيفة.

العاصفة تقترب أكثر، خاف الجمل وبدأ يصدر أصواتًا مرتعبة، رفس بقدميه وركض هاربًا تاركًا إياهم في الصحراء وحدهما، الشيخ لازال واقفًا حتى إذا اقتربت منه العاصفة جرح نفسه بالخنجر ورفع يده إلى الأمام ليواجه بها الرمال التي وصلت إليهما وكأنها غاضبة، ثم طرق بعكازه على الأرض وتصاعد داخل العاصفة أصوات زمجرة مثل حيوان مفترس، الرمال تضرب وجه شمس ذو الجسد المسجي على الأرض، الرمال تتموج كما البحر الهائج، السماء تتلبد بغيوم رمادية ظهرت من العدم.

فرد الشيخ ذراعيه على الامتداد وبدأ يتمتم بكلمات بالعربية ممزوجة بالأرقام لتمر ثواني على عاصفة سرعان ما انتهت ليسود السكون بعدها وتختفي العاصفة ويهدأ كل شيء.

***

خانقـــــــاه الأخضر

الهواء بارد يدغدغ المشاعر، القمر يتلألأ في السماء مداعبًا السحب بضوء يتخلل بينها لينير المكان الذي كان قبل ثواني صحراء ولكنه تحول فجأة ولا يعلم شمس الدين كيف، إلى صحراء ولكن على امتداد بصره تراصت منازل من طابق واحد وقباب ومئذنة تتوسط المكان لونها أخضر تقشر طلائها وتساقط.

نهض شمس ببطء ونظر حوله بذهول، أمامه الشيخ عرابي ينفض عن جسده رمال علقت في ملابسه، مسح على رأسه وشعره الأشيب ناثرًا حبات اختبأت بينها.

«إين نحن»؟ قالها شمس وعينيه تدوران في المكان تستطلع بغرابة.

«الخانقاه» تمتم بها الشيخ وسمعها الشاب. لم يصدق أذنتيه، أين كانت قبل ثواني؟ وكيف بُنيت ولماذا لم يسمع عنها سابقًا!

نظر الشيخ إلى الأعلى وقال بسرعة وتحفيز: «الليل اقترب، أمامنا دقائق علينا فيها الوصول إلى بيتي وإلا سننال ما لا نحمد عقباه».

لم يعلق شمس لكنه سار خلف الشيخ الذي هرول بخطوات

متسارعة ودخل المكان، الخناقاة تحيط بها سور قصير لا يتعدى المتر، مطلي بالأسود وعليه أرقام مقلوبة متداخلة مع حروف وشعارات، تحيط بالمكان ومن خلفه مساحات مزروعة بنباتات شاهدها لأول مرة تشبه البقدونس والبصل لكن لونها أسود تتتخلل أوراقها خطوط حمراء منحتها منظرًا مهيبًا أما ساقها فكان مليئًا بالشوك الرفيع رمادي اللون متقوس الهيئة.

دخلا وسارا، الأرض رملية ندية، لفت نظره وجود كلاب مختلفة الشكل والهيئة، بعضها يبدو عليها السعار، وبعضها مستكين يسير ناكثًا رأسه باحثًا عن طعام أو شراب. أما البيوت فكانت هيئتها الأغرب، أمام كل بيت حفرة صغيرة على حافتها عصا مطعونة في الرمال أعلاها قطعة من الصاج محفور عليها رقم واسم بالعربية مقلوبة وأسفلها رموز متشابكة. تبدو مثل قبورا!

سار الشيخ عرابي بجانبه، يبدو أنه تعود على المشهد. سأل شمس بفضول واضح: «هناك حفر أمام البيوت وأسماء، ما هذا، هل هي قبور»؟! أجاب الشيخ بحسم ونبرة غريب: «لا تسأل الآن، أنت غريب هنا».

لم تعجب شمس الدين الإجابة، تجهم وجهه، اغتاظت ملامحه، كاد أن يرد بدم فائر على الشيخ ولكن الرجل التفت

إليه ومنحه إبتسامة هادئة اطفأت حُمم عصبيته. استمرا في السير، كل ثواني ينظر الشيخ إلى القمر ثم يدور برأسه حوله كأنه يترقب حدث ما ثم يواصل ومن جانبه شمس الدين عقله يحلل المكان ويحفظ معالمه كما تعود من صغره.

البيوت تتراص على الجانبين، ولها نوافذ من الخشب المنقوش والمزخرف المبطن بالزجاج الملون، تلتصق ببعض البيوت دكة من الطابوق مكسية بالقماش، وفوقها وسائد بهتت ألوانها.

المشاعل التي تنير المكان كانت بتصميم غريب، عالية بعض الشيء ومحاطة بأسياخ حديدة حادة، وأسفلها رقم يقطعه حرف عربي، شاهد رقم ٥ يقطعه حرف الـ «ن» ورقم ٩ يقطعه «م». الغريب أنه لم ير أي شخص أو إنسان في الشارع. النوافذ المغلقة، ولم يسمع أي أصوات بشرية آتية من أي اتجاه!

سمع صوت فحيح يتردد من بعيد فوقف. نظر إليه الشيخ وقال بقسوة غير مبررة: «لا تتوقف الآن» تحرك معي.

وبدأ يسرع خطواته أكثر، وأصوات تنفسه المتوتر والممتزج بالجهد تعلو، قطعا البيوت ومرا ببركة ماء تتوسط المكان لكنها فارغة، حتى وصلا إلى بيت على اليمين مكتوب على الصفيح أمامه كلمات متداخلة قرأها شمس بصعوبة

بالغة بسبب زاوية الرؤية، يبدو أنها «عرابي» وأرقام ٦ و٨ و١ ورموز غريبة. وقف الشيخ وطرق مرتين وتوقف، ثم مرة، ثم ٣ مرات!

بعدها فُتح الباب، وظهرت من خلفه فتاة في العشرينات من عمرها، جميلة، عيناها واسعتان، شعرها حالك ينسدل من جانبي غطاء رأس أسود، ترتدي جلبابًا فضفاضًا زادها حلاوة.

دخل الشيخ ونظر إلى شمس الدين ليدخل ولكن الشاب ظل واقفًا، تسمر، أخذه جمال الفتاة، سرح في عينيه البنيتين الواسعتين، صال وجال خياله فيها، إلى أن شعر بيد تجذبه إلى الداخل وسمع خلفه صوت ركض غريب ونظر ورائه فلم يجد أي شئ وإن شاهد في نهاية الشارع ظل أسود ضخم يتحرك على أربع كما لو أنه روح هائمة، وقبل أن يستوعب ما شاهده أغلقت الفتاة الباب وهي تقول بتأنيب للشيخ عرابي «تأخرت يا أبي، ثواني وكنا سنخسرك»!

***

«ابنتي زينب». أشار الشيخ عرابي إلى الفتاة وقالها بحُب واضح واحتضنها برفق وربت على رأسها.

«السلام عليكم يا زينب» تمتم بها شمس الدين بخجل، لازال جمالها يوتره.

ابتسمت بخجل وقالت وهي تشير إلى الداخل «جهزت العشاء».

البيت بسيط، النافذة مغلقة، الأرض مكسوة بحصير ألوانه زاهية، رائحة الطعام الطيب تطوف في المكان وتسيل اللعاب، الحوائط من الحجارة الكبيرة المتراصة والمطلية بالأبيض والأزرق ومعلق في الحائط المقابل للباب آية الكرسي.

الأثاث ليس متكلفًا، ٣ كراسي ومنضدة وفي المقابل ردهة تقود إلى الداخل.

المشاعل موزعة بعناية لتمنح المكان بصيصًا من الضوء لا يؤذي العين وإن كان لا يصل إلى بعض المناطق في الغرفة بشكل جيد.

دخلت زينب وخلفها الشيخ عرابي وبعده شمس الدين، واتجهوا إلى غرفة واسعة على أرضها تراصت أطباق من الجُبن والرائب والعيش المخبوز الساخن وحبات تمر في طبق نحاسي صغير وعلى الجانب أبريق مياه تشبرت جوانبه رغم الطقس البارد بعض الشيء.

تذكر شمس الدين ما شاهده قبل الدخول، سأل الشيخ عرابي عن ما رأه. لم يرد الشيخ، مضغ الطعام ببطء وتبادل

النظر مع زينب والتي قالت بمرح وهي تشير إلى الرائب «لا تنساه، الطبيب نصحك بتناول الكثير منه لأجل معدتك».

ابتسم الشيخ ولم يرد على سؤال شمس الدين الذي استشعر الحرج وتناول الطعام بتكلف وخجل وسط نظرات لم يمنعها سلطها على زينب بهية الجمال، إلى أن انتهى ونهض جالسًا على أريكة خشبية ينتظر إنتهاء الشيخ من طعامه.

لم تمر دقائق حتى لحق به الشيخ، وفي الخارج تصاعد صوت رياح قوية اهتزت على إثرها النوافذ، وصوت عواء غريب ضرب مسامع شمس الدين وجعل جسده يرتجف رغمًا عنها.

نظر الشيخ إلى زينب وقال لها باقتضاب: «الآن».

نهضت الشابة وفي يدها كاسة ماء فارغة وبدأت تضعها على المشاعل لتخنق ضوءها إلى أن خفت واختفى، تصاعدت رائحة الزيت المحروق في المكان، وتسارعت خطوات زينب لتطفئ كل المشاعل حتى ساد الصمت والظلام وسمع شمس الدين صوتها تقول «سأذهب يا أبي للنوم، إن احتجت شيء، ناد علي».

رد الشيخ «جزاك الله خيرًا يا ابنتي» ثم وجه حديثه إلى

الشاب: «الآن ستنام هنا، إلى أن أذهب بك غدًا إلى بيتك في الخناقاة، ستكون فيه لفترة إلى أن يأذن الله بأمر غير ما نحن فيه».

رد شمس الدين بكلمات ممنونة حملت شكرًا كبيرًا ولهجة ودودة: «شكرًا لك يا شيخ عرابي، انقذتني وجازفت بحياتك لأجلي».

لم يرد الشيخ لثواني. قال بعد صمت: «غدًا صباحًا سأيقظك لنذهب لبيتك الجديد، أما الآن نم، ولا تشعل الضوء نهائيًا مهما حدث، هنا، في الخانقاه ننام في الظلام، لا ضوء، لا صوت أو جلبة أو ضوضاء عالية، هي قوانين ستتعود عليها ولكن احذر أن تخرقها».

«إن شاء الله» قالها شمس الدين بودّ واستلقى بجسده على الأريكة، وشعر بعدها بقطعة من القماش توضع على جسده، رفعها إلى ذقنه وأغمض عينيه وسمع صوت خطوات الشيخ عرابي تغادر الغرفة والباب يُغلق خلفه بهدوء.

ليلـــــة حـــــل فيها الشـــــر

ظلام دامس، هواء يضرب النافذة في غرفته يثير في نفسه الخوف، ذكره بما واجه من صغره، يعيد ذكريات أليمة لطالما حاول نسيانها لكنها تأبى الاختباء في الركن المظلم من عقله.

«أبيييي» صوت صراخه حين شاهد عنق أبيه المقطوع، ركله لجده ليحرره ويحاول لمس والده لأخر مرة في حياته قبل سقوط جسده في ذلك المكان الملعون.

هروبه من بعد موت والده وركوب عربة بضائع وترك مسقط رأسه والذهاب بعيدًا. شعر أنه خذل والده حين تركه يموت ولم يدافع عنه، يستشعر الندم والجُبن كلما تذكر.

في ليلة موت أبيه سمع جده يبكي في غرفته بحرقة ويقول وسط دموعه «ضحيت بروحك لأجل ابنك، ضحيت بنفسك لأجله يا ولدي، وتركت قلبي ينزف من بعدك، كُسر قلبي ومُت قبل أن يموت جسدي».

فهم شمس من صغره أنه كان المختار ليموت في ذلك البئر، عرف أن والده ضحى بحياته لأجله، لا يعلم لماذا يموت ولماذا حدث كل هذا.

لطالما كان يشاهد وهو يلعب مع أقرانه موقع الضريح الذي

فيه البئر وسمع عنه أساطير وحكايات لا يصدقها عقل.

يُمنع اقتراب البشر من المكان، موقعه بعيد عن البيوت والونس. يقول الأهالي إن البئر في الضريح يسكنه شيطان لا يكف عن طلب الدماء على كل أسرة أن تقدم أضحية كل ١٠ أعوام وإلا سيصيب الأهالي لعنة لا تنتهي ودم لا يتوقف عن النزيف، لم يفهم معنى ما يقال ولكن حين كبر استوعب ما كان يحدث. هل كان الشيطان يسكن البئر حقًا؟ شاهد بعينيه المخالب التي قطعت عنق أبيه، أحس بالمطاردة من أتباع الشيطان ليدخل في الموعد المحدد.

سمع عن أبناء ماتوا ورجال قتلوا في المكان، سمع عن تضحيات حدثت وقرابين قُدمت لأجل شيطان البئر، لكنه لم يصدق إلا حين مات أبيه أمامه.

تقلب في الأريكة ونظر بعينين مدمعتين إلى النافذة. خذل أبيه، لم ينقذه، بل وهرب من المكان والآن بعد أن كبر لا يقدر على معرفة السبيل للعودة، فقد أثر الطريق، تشابهت العلامات ومرت السنين لتمحي أي دليل يقوده إلى أسرته حتى أنه لا يتذكر سوى اسم والده «أركان».

هكذا كان اسم ابيه، له هيبة، شجاع وكان يحتضنه كلما خاف أو بكى، كان بمثابة الام والاب له، لم يبخل عنه بحنان أو حب، لم يتركه لقدر مظلم يطيح به يمينًا وشمالًا بل كان

وتدًا راسخًا يستند عليه إن مال به الزمن. الآن ذهب الوتد وتراقصت حياته ما بين يمين يُفرح لدقائق وشمال يُبكي لسنين. لا وسط وإن مالت الكفة إلى البكاء دومًا.

النافذة ترتعش من هواء يطوف الأجواء في الخارج، يوجد ضوء بسيط يتمايل عليها، بالتأكيد من المشاعل في الخانقاه، ضوء يتضخم ويتقزم، يحاول التسلل من ثغرات النافذة التي زاد اهتزازها.

«فووووووووووووووووو» ارتفع صوت الريح، انكمش شمس بجسده أكثر، أغلق عينيه.

يخاف الطبيعة، يرتعب من أي علامة تدل على غضب الله، الريح جند من جنود الخالق، مثلها مثل الشيطان. الريح تؤذي البدن والشيطان يتلاعب بالعقل، الريح تعمي البصر والشيطان يعمي البصيرة، كلاهما مخلوقات على الإنسان أن يخشاها، ولهذا يخشى الطبيعة وغضبها كما يخشى الشيطان ووسوسته.

«شمس الدين» سمع الصوت ينادي باسمه!

صوت خافت، غير واضح، نبرته متقطعة.

اعتدل بسرعة، نظر حوله وحاول أن يرى ويدقق في المنادي لكن الظلام الدامس لم يترك له مساحة للرؤية أو

وتدًا راسخًا يستند عليه إن مال به الزمن. الآن ذهب الوتد وتراقصت حياته ما بين يمين يُفرح لدقائق وشمال يُبكي لسنين. لا وسط وإن مالت الكفة إلى البكاء دومًا.

النافذة ترتعش من هواء يطوف الأجواء في الخارج، يوجد ضوء بسيط يتمايل عليها، بالتأكيد من المشاعل في الخانقاه، ضوء يتضخم ويتقزم، يحاول التسلل من ثغرات النافذة التي زاد اهتزازها.

«فووووووووووووووووو» ارتفع صوت الريح، انكمش شمس بجسده أكثر، أغلق عينيه.

يخاف الطبيعة، يرتعب من أي علامة تدل على غضب الله، الريح جند من جنود الخالق، مثلها مثل الشيطان. الريح تؤذي البدن والشيطان يتلاعب بالعقل، الريح تعمي البصر والشيطان يعمي البصيرة، كلاهما مخلوقات على الإنسان أن يخشاها، ولهذا يخشى الطبيعة وغضبها كما يخشى الشيطان ووسوسته.

«شمس الدين» سمع الصوت ينادي باسمه!

صوت خافت، غير واضح، نبرته متقطعة.

اعتدل بسرعة، نظر حوله وحاول أن يرى ويدقق في المنادي لكن الظلام الدامس لم يترك له مساحة للرؤية أو

مجالًا لاستكشاف مصدر الصوت.

«ولدي» الصوت يكررها.

صوت والده!

الصوت الذي حُرم منه لسنوات لا يحصيها، تمتم بعدم استيعاب «أبي»!

رد الصوت وامتزج بالريح «شمس الدين».

تهدج صوته وسعل وكاد أن يبكي «أبي، أين أنت»!

عاد الصوت المتقطع يقول «لا أراك يا شمس الدين، لا أراك، أشعل نورًا أراك منه، أشعل قبسًا لأرى ملامحك».

نبرة مستكينة، ضعيفة، متضرعة، جعلت جسد شمس الدين ينتفض، نهض كمن مسه جنون وتحسس بسرعة ما حوله حتى شعر بشمعة في طبق نحاسي، أمسكها وتحسس مجددًا حتى شعر بقطعة من الحديد والصخر الأسود الأملس، حكهما في بعضها البعض بسرعة وبدأ يتصاعد منهما الشرر.

اقترب الشرر من الشمعة وأمسك في فتيلها وتصاعد اللهب لثانية واحدة جعلت شمس الدين يصرخ وهو يسقط الشمعة من يده على الأرض وتنطفئ!

جلس أرضًا يبكي من الخوف وهو يضم يده على وجهه

ويقول برعب بالغ «ابتعد عني، ابتعد عني»!

شعر بيد تمسك بكتفه، صرخ بحدة وتراجع بظهره على الأرض. سمع صوت الشيخ عرابي يقول له بصوت خافت، حاد: «اهدأ، إنه أنا، أنا الشيخ عرابي».

تصاعد صوت بكاء شمس الدين وشعر بيد الشيخ على كتفه تهدئه، قال له وهو ينظر حوله بخوف في الظلام «شاهدته، شاهدت أبي»!

رد الشيخ باستنكار «أبيك»! أجاب شمس الدين وجسده ينتفض «كان مسخًا، وجهه أسود وجسده ممزق وعينيه سوداء، كان أمامي مباشرة وهناك وشوم محفورة على جلد وجهه».

«اهدأ» أعادها الشيخ بلهجة آمرة ولم يعلق ثانية. استكان شمس الدين وسيطر على مشاعره وهدأ صوته من البكاء بعد أن شعر أنه قلل من نفسه وهيبته: «كان يمد لي يده وبها مخالب سوداء ويقول لي، تعال معي»!

رغم أنه قاله بصوت حاول جعله قويًا إلا أن جسده كان ينتفض، حتى شعر بيد الشيخ عرابي تضغط على جانب عنقه وأحس بتنميل في عقله فجأة وانتفض جسده ثم غاب عن الوعي.

***

لا يدري شمس الدين كيف نام أو متى؟ أخر ما يتذكره هو رؤية والده الميت ودخول الشيخ عرابي عليه والإغماء ثم استيقظ وشمس الصباح تتحسس وجهه لينتبه.

شعر بحرارتها البسيطة والضوء يتسلل من جفنيه يجبره على الاستيقاظ. فتح عينيه ووجد أمامه الشيخ عرابي جالس على الأرض وأمامه قطعة طباشير يفركها بقوة لتتحول إلى مسحوق أبيض وضعه في صحن به قطرات من الماء لونه رمادي غريب ثم أخذ يربت عليه ويقلبه حتى امتزج وتحول إلى قطعة واحدة متماسكة.

نهض الشيخ بالقطعة اللزجة ولم ينظر إلى شمس الدين، واتجه إلى النافذة وقسم القطعة إلى فتات صغيرة أخذ يضعها على حواف الخشب والثغرات إلى أن انتهى والتفت إلى شمس وقال له مبتسمًا: «انتهيت، هيا لنفطر ثم نذهب لترى بيتك» .

***

نظرات خجلة وحُب

لا يدري هل الحلاوة في فمه من أثر الطعام أم أن الإبتسامة على ثغر زينب له طعم العسل وملئت فاه؟ لا يعلم شمس الدين.

تناول الفطير بروية، نظرة خجلة إلى الشابة وأخرى مُحرجة إلى الشيخ الذي جلس بجانبه لا يتكلم. لم يناقشه فيما حدث أمس.

انتهى من تناول الطعام وانفض الجلوس وخرجوا إلى الشارع الرئيسي في الخانقاة تنير لهم شمس الصباح المعالم. لمح مئذنة وحيدة تقف شامخة عند بيت كبير في نهاية الخانقاه على يمينها وشمالها بالطول بقية البيوت.

لأول مرة منذ أن دخل الخانقاه يشاهد بشرًا، أهالي يبدو عليهم البساطة، عددهم ليس بكبير، لم يتخط من شاهدهم العشرة، قليل من الأطفال، ندرة من النساء، يرتدي الجميع جلباب أبيض والرجال بعمة رمادية مطعمة بخيوط لونها فضي، والنساء بغطاء رأس لونه أخضر فاتح.

النظرات تطارده، فضول ينهش رؤوس الموجودين ظهر جليًا في بحلقة غير متوارية سلطوا بها نظرهم عليه حتى دخل به الشيخ إلى بيت يبعد عن بيته قرابة ٣ بيوت.

النوافذ ملونة كما عادة المكان، بابه يحمل رقم ٦ و١و٢ ومعه كلمة «علم» ورموز متداخلة، سر تحمله هذه الأرقام والرموز ولكنه تعلم الدرس، الفضول لا يُجدي مع أصحاب السر.

اقترب عرابي من اللوحة وأخرج من جيب جلبابه منديلًا ومسح الحروف بعناية ثم أخرج قطعة من الجير وكتب «شمس»!

انتهى ونظرات شمس الفضولية تلاحقه، وقال براحة: «تفضل يا بني» ودفع الباب فانزاح للداخل مصدرًا صريرًا عاليًا.

ثواني وانفتحت النوافذ وتوغل ضوء الشمس في المكان هازمًا العتمة مبددًا إياها في جوانب البيت البسيط الذي يضم أريكة خشبية وكرسي واحد وحصيرة بهت لونها وكساها غبار وتراب من قلة التنظيف.

«لمن هذا البيت يا شيخ عرابي»؟ ألقى شمس الدين سؤاله وانتظر إجابة طالت. لم يرد الشيخ مباشرة بس ظل صامتًا لدقائق كأنه يفكر في إجابة ثم قال بتنهيدة بسيطة لم يُخفها: «رحل صاحبه، الآن هو بيتك».

جلس شمس الدين على الكرسي ونظر مليًا إلى الشيخ

وقال بثبات: «كيف دخلنا يا شيخ للخانقاه؟ لم أرها حين كنا على الناقة، كانت مجرد صحراء وتلال رملية»!

أجابه الشيخ مباشرة هذه المرة. قال مبتسمًا: «لكل شيء سر، وإن شاع السر فُقد ميزته، وهنا على أرض الخانقاه ما أكثر الأسرار وأقل البوح، لا تنتظر إجابة لأنها إن جاءت لن تفهمها، فليس كل ما يُفهم يُشبع الفضول».

تسترت كلمات الشيخ في قالب جمالي. هكذا فكر شمس الدين، عرابي لا يريد الحديث، المكان يحمل أسرارًا لا يمكن البوح بها. فهم الشاب، لكن من داخله لن يتقبل هذا، شخصيته العنيدة تجعله ينبش الخبايا، فكيف بمكان سيعيش فيه لفترة؟

قابل قول الشيخ بإبتسامة ولم يعلق، هناك أشياء تشغله، منها رائحة المكان! غريبة بعض الشيء، مزيج من الرائحة العطنة والحسنة، الهواء بارد بعض الشيء رغم أنهم في الصحراء، الحفر أمام البيوت، المئذنة الواحدة، والده الذي شاهده أمس.

اتجه الشيخ إلى الباب وفتحه وقال قبل خروجه: «سأتركك الآن ترتاح، ترتب بيتك وعقلك، سأذهب لمباشرة بعض الأمور حتى المغرب، لكن تذكر، إن حل عليك الظلام قبل عودتي لا تخرج من بيتك نهائيًا حتى الصباح».

وزاد بصوت خافت سمعه شمس الدين بصعوبة «ليل الخانقاه ملعون».

***

العزلة تزيد التعاسة، تجعل العقل يبني بالذكريات حصون قاسية، يشيد جدران الألم، يغزل نسيج الإحباط ليصنع شبكة قوية توقع الضعيف؛ وحينها يستفرد به الوجع ويُسقطه بالضربة القاضية.

خرج عرابي وبقي شمس وحيدًا، اشتعل عقله بالتفكير، لم يتوقف لراحة ولم تصمت نفسه عن الحديث، يتخوف من سقوطه في فخ الألم، رغم قوته الظاهرية هو ضعيف، روحه مهترئة، ممزقة، يشوبها خوف رغم ما يصدّره من جلد.

ضم قبضتيه ببعضهما البعض، جلس أرضًا وشخص ببصره ساهمًا، أكسى وجهه مُرغمًا ببرود لعله يمنع عنه التفكير.

مر الوقت بتارًا قطع يومه فجأة، لا يدري كم ظل جالسًا لكنه شعر بضوء النهار يتلاشى، يتبدد في ظلمة الليل، نهض وفتح الباب ووجد بعض الأهالي يتجهون إلى منازلهم، تصاعدت أصوات غلق النوافذ، زأرت رياح الليل. لم يأت الشيخ عرابي، ربما رحل أو حدثت له ظروف. لم يحضر له طعام غداء وانتهى وقت السماح بخروجه للخارج لإحضار ما

يسد به رمقه.

طُرق الباب وقطع حبل تفكيره، نهض شمس الدين وفتح بسرعة ليجد أمامه القمر قد هبط على ساحة الخانقاه متجسدًا في هيئة بشرية.

«زينب» قالها بتعجب. ردت بخجل واضح: «أبي لم يعد حتى الآن وطلب مني إن تأخر أن آتي إليك وأقول لك، لا تخرج ليلًا، ولا تفتح النوافذ مطلقًا».

قالتها بسرعة وأعطته بطانية بها شيء صلب ظن أنه طعام. نظر لها ممتنًا وكاد أن يشكرها لكنها نظرت حولها بخوف واضح واتجهت عائدة إلى بيتها، ونظرت له بسرعة وقالت «لا تُشعل الشمعة.. لا ضوء ننام فيه».

وقف شمس متسمرًا مكانه، تتصاعد أنفاسه بسرعة من رؤياها وأكملت بصوت خافت، مرتعب: «ليل الخانقاه ملعون»!

***

البرودة تشتد، تتنافس لإيقاف الدم في أطرافه العارية التي خرجت من بطانية قصيرة قدمتها له زينب، ممزقة بعضها كما تفكيره الآن، أصبح كل ما يشغله هو الهواء البارد الذي يشعر به ويتسرب لا يدري من أين؟ يرتعش جسده،

ينتفض وكأن لسان من برق بارد يسري في أوصاله.

فكر في حال من ينامون في العراء في تلك اللحظة، هل يشعرون بما يشعر أم تعود جسدهم على قسوة الطقس كما تعودت قلوبهم على بلادة قلوب البشر؟!

تقلب على يمينه ونظر بنصف عين مغمضة إلى ملامح الشمعة التي تتوسط الطبق النحاسي الواسع، خبا ضوئها بعد أن قُتلت صبًا بالماء من قلة بنية اللون مقشرة لونها، أعطتها له ابنة الشيخ قبل رحيلها السريع.

يتذكر نظرتها المحذرة قبل الرحيل «لا تُشعل الشمعة.. لا ضوء ننام فيه» ثم إبتسامة مشجعة ورحيل بدون سؤاله عن ما يحتاج، الآن ذئاب معدته تنهش جدرانها من أثر الجوع.

ضغط على بطنه ببطء، شعر بأصابعه تنغرس فيها للأسفل، خاوية على عروشها، يتذكر آخر وجبة تناولها صباحًا، ومن حينها لا يرويه إلا الماء ولا يسنده إلا ذكرى الإفطار.

تذكر قبل يومين كوب العرقسوس الذي قدمه له الساقي متمايلًا بأبريقه النحاسي لصبه.

«شفا وخمير يا عرقسوس وبارد وخمير وتهنى يا عطشان» كلمات الساقي ترن في أذنيه وهو يصب له الكوب ما جعله يشعر ببعض الهدوء.

للذكرى أثر مادي، ليست مجرد أفكار طارئة، بل تؤثر على المشاعر، تجعل المستذكر يفرح إن كانت ذكرى طيبة، يحزن إن كانت مؤلمة، وذكرى العرقسوس رسمت إبتسامة خفيفة على وجهه لا يدري إلى متى استمرت ولكنه لم يشعر بنفسه إلا وهو يسقط في هاوية النوم معلنًا استسلام جسده أمام الإنهاك والجوع والتفكير.

***

كـــــــلاب الخانقـــــــاه

في الليل تنشط الهموم، تتصارع على الجسد المكلوم، تتدافع فوق رأس صاحبها لتوقظه على تنهيدة متألمة، ربما يستيقظ ويشعر بشيء يطبق على صدره فيدفنه بكوب ماء، أو يستمر في نومه لا يبالي وينسى ألمه مع إشراقة الصباح.

شمس الدين لم يكن من النوع الثاني، الأرق يلازمه منذ صغره، يستيقظ على كوابيس أو ألم يصيب نفسه ويجعله يفتح عينيه كما فعل تلك الليلة.

نظر حوله ولم يجد سوى الظلام، أصوات الريح واضحة، شعر أنه لم ينم أكثر من ساعتين، أمامه ليل طويل وجوع مستعر يلتهم أمعائه.

اقترب من النافذة وحاول النظر منها خارجًا لكن زجاجها الملون لا يشف، لا يكشف، معتم كأيامه تلك، وضع رأسه على النافذة وطرق بها بهدوء، يؤلمه الانتظار.

كاد أن يخوض معركة مع ذكرياته ومع نفسه مجددًا لكن صوت خطوات في الشارع خارجًا جعلته ينتبه، خطوات ثقيلة تتحرك بانتظام.

قاده فضوله وحاول فتح جزء بسيط من النافذة يكشف ما في الخارج. بهدوء، دس أصبعين وفتح.

نظر ولم يجد سوى ظلام في غالبية الأرجاء ومشاعل الشارع تبدد بعضها، الضوء في الخانقاه فقط مصدره مشاعل الشارع أما البيوت فظلمتها حالكة.

توقف الصوت، نظر شمس أكثر وفتح النافذة أوسع، اقترب برأسه، عاد الصوت أقوى، خطوات راكضة!

بدا مثل فيل يركض ويقترب من مكانه! شهق وتراجع إلى الخلف وترك النافذة تهبط وتُغلق.

الصوت توقف عنده، سمع أصوات أنفاس لاهثة خلف النافذة، ظل لوجه ضخم يتلاعب فوق رأسه وفوقها ظلال صغيرة كما القرون تظهر خلف الزجاج الملون.

اقشعر جسده، كاد أن يصرخ خوفًا.

تماسك، بلع ريقه بصوت مسموع، رجع خطوتين إلى الخلف وتمكن منه الرعب وجعله يُسقط -بغير انتباه- القلة الموضوعة على الأرض، هبطت على الأرض معاندة الصمت وأصدرت صوتًا عاليًا إثر ارتطامها القوي.

زاد صوت التنفس الثقيل القادم من الخارج، شعر شمس أن من في الخارج وحش يتربص بمن في البيوت!

ظل ساكنًا مكانه، حبس أنفاسه خوفًا، استمر الوضع لثواني

ثم شاهد الظل خلف النافذة يتحرك بعيدًا وصوت الأنفاس تختفي.

بقي في موضعه لم يتزحزح قيد أنملة، كاد أن يعود إلى النافذة يتأكد من عدم وجود شئ لكنه توقف مصدومًا بعد أن سمع صوت طرق خفيف على الباب!

طرق. هناك من يطرق!

بالتأكيد ليست زينب أو الشيخ عرابي، وبالطبع ليس أحد من أهالي الخانقاه فلا أحد سيجازف بالخروج ليلًا ويخرق قوانين المكان.

اقترب بخطوات مترددة، حلقه جاف من التوتر، الظلام حالك، ورؤيته نابعة من يد ممدودة تتحسس الطريق إلى أن صل للباب ووضع أذنيه عليه.

الطرق بسيط كمن يداعب الخشب بهدوء.

«من في الخارج»؟ قالها بصوت متقطع، متهدج، يرتجف رعبًا.

زاد الطرق! ارتفع كمن تأكد من وجود أحياء في المنزل ويريد أن يُسمح له بالدخول!

«منَ»؟ قالها بصوت أعلى ونبرة خوف جلية. زاد الطرق

أكثر، طرقات قوية، متتالية، صوت أنفاس عالية، وخوار بدأ يظهر مع كل طرقة.

ارتعشت أطراف شمس، ثلجت يداه، شعر بركبتيه ترتعشان، تذكر المسخ الذي قتل والده، تذكر الموت والبئر والدم، شعر بضغط في رأسه، حرقان قوي في عينيه لا يدري أهي دموع أو عرق فر من مسام جلده هربًا مما يحدث.

الطرق لا يتوقف، الخوار يزيد. زاد الطين بلة وسمع اسمه يتردد ببطء من القادم خلف الباب «شاامس».

قالها الصوت ببطء ومدّ. صوت عميق أجش.

لم يتمالك الشاب نفسه، استدار وأسند ظهره على الباب، شعر بدقات من في الخارج تزحزح الخشب بعض الشئ، تضرب ظهره فيرتعش.

صمت، ضم شفتيه وكور قبضتيه، حاول تمالك نفسه فلم يفلح.

«شمس الدييييييييين» عاد الصوت مناديًا. بدأت دموع صامتة تتشكل في مقلتا عينيه، تسللت دمعة ولاحقتها أخرى. «افتح يا شاااامس».

الطرق أصبح برتم ثابت، وجسد شمس لا يكف عن

الارتعاش. «دعني أدخووووووول». الصوت يستفزه، يطلب الدخول، الدموع تسيل أكثر، جسد شمس يتشنج.

ضغط بجسده أكثر على الباب ونزل بركبتيه على الأرض، وكور نفسه كطفل رضيع، واهتزاز الباب لا يتوقف، بل استمر لدقائق كادت فيها روح شمس أن تُزهق خوفًا حتى توقف كل شئ بغتة.

سمع صوت طرق معدني في الخارج وبعدها صوت الخطوات الراكضة تبتعد.

حاول تمالك نفسه، نهض بتثاقل مستندًا على الباب بذراعين ضعيفتين من أثر الخوف، وصوت الطرق الحديدي يزيد في الخارج.

هناك من تدخل وصنع جلبة لإبعاد هذا المخلوق عنه. منَ؟!

فكر بسرعة، لم يجد سوى صورة زينب تملأ عقله. أتكون هي من فعلت؟! أم الشيخ عرابي؟ الشيخ لم يحضر قبل الليل، ولن يدخل والخانقاه مُظلمة. لا أحد من الأهالي سيجازف بمساعدته!

تصاعدت دقات قلبه، زينب. إنها هي بالتأكيد.

صوت الخوار أصبح واضحًا في الخارج، ليس ببعيد، بيت

الشيخ عرابي لا يبعد عنه أكثر من بيتين، هي زينب!

والده ضحى بنفسه لأجله وهو صغير، والآن شابة لا يعرفها إلا من يوم أمس تضحي بنفسها لأجله وهو كبير!

زينب! دق قلبه وهو يتمتم باسمها، ارتعشت شفتاه وهو ينطقها. تذكر الكوابيس التي تلاحقه وشعوره بأنه خذل والده وجعله يموت بدلًا عنه، لن يتحمل ذنب آخر، لن يقدرعلى العيش إن أصابها سوء بسببه.

عقله يعانده، إن خرج سيموت، لا يدري ما يواجه، لا يعرف سر الخانقاه، لكنه يعرف سر نفسه.

دوى صوت هادر في الخارج، انتفض، عزم أمره، أمسك بالباب وأزاح المزلاج الأسود الضخم بحسم، شعر بقوة تغمره، لن يسمح لأحد ثانية أن يضحى بحياته لأجله.

خرج شمس فاستقبلته أمطار، حلت فوق رأسه تداعب شعره الطويل، تسابقت على وجهه وتسللت إلى لحيته القصيرة، نظر أعلاه ووجد الغيوم تتصارع.

دوى الرعد منذرًا وشعر أنها رسالة من الله إليه. من يخاف من أي مخلوق وخالق الخلق موجود؟

الشارع مظلم إلا من المناطق التي تنيرها المشاعل، شد

جسمه وسار متحديًا خوفه ونفسه، شاهد بيت الشيخ عرابي من بعيد، وأمامه ظل أسود ضخم غير واضح المعالم يكسي جدران البيت بالأسود الثقيل وكأنه قطيفة سوداء ترتديها الجدران الحجرية.

في داخل بيت عرابي خبى صوت الطرق، توقفت زينب عن طرق الحديد لجذب المخلوق، سار شمس بخطوات متثاقلة ودقات قلبه السريعة تنافس سرعة هطول الصيب. أخرج خنجره وطرق به على أول جدار بيت بجانبه، خدش حجارته فانتفض ذراعه من اهتزاز السكين بالحجر.

سيجذب المخلوق إليه ثم يعود ركضًا إلى بيته ويغلق عليه الباب ولن يفتح. المهم ألا يصيب زينب سوء.

الظل الأسود لازال في مكانه، الخوار واضح. طرق بمقبض الخنجر على الحائط مجددًا فشعر أن المخلوق يتحرك!

لا يدري وجهه من ظهره، فقط يرى كتلة سوداء بدون ملامح! وأعلى المخلوق ما يشبه الأدخنة تتراقص، أما طوله يتعدى المترين. سمع خطوات ركض قادمة تجاهه!

الظل لازال في مكانه! لا يفهم! الخطوات تقترب!

نظر حوله بذعر ووجد ما يشبه الكلاب السوداء تركض ناحيته، كلاب تركض على أربع، سوداء تمامًا عدا عينين

طوليتين وما يشبه الريش على جانبيها! مخلوقات يراها لأول مرة!

بلع ريقه بخوف وشعر بالمصيبة التي حلت به، كان يظن أنه يواجه مخلوقًا واحدًا ولم يدري أن هناك مخلوقات غريبة أيضًا. لا. ليست أي كلاب. حين اقتربت منه شاهد وجهها بوضوح أكبر.

عيونها حمراء، أنيابها طويلة تنسال من أفواه ضخمة واسعة، رؤسها كاملة الاستدارة بشكل لم يره من قبل، وضخمة الحجم وكلما ركضت شاهد من أسفلها تصاعد لدخان أبيض غريب وكأن الأرض تفور من أسفلها.

لم يمهل نفسه فرصة للتفكير، التفت شمس الدين بسرعة وركض تجاه بيته وفي يده الخنجر، نظر خلفه ووجد الكلاب تقترب منه، تزمجر مثل الأسود، تخور بقوة مثل الثيران الهائجة، أنيابها تنذر بموت وهلاك محتوم. اقترب من البيت أكثر وقبل أن يدفع الباب ويدخل وجد أمامه أحد الكلاب.

نظر الكلب إلى شمس الدين بتحدي، كشر عن أنيابه، وقفز بقوة كوحش جاسر مستهدفًا عنقه. لم يدرِ شمس بنفسه إلا وهو ينحني إلى اليمين متفاديًا الهجوم وأطاح بخنجره مدافعًا وشعر بألم حارق في كتفه.

نزل الكلب على قوائمه الأربعة وفي بطنه جرح غائر أسال ما يشبه دم برتقالي لامع غريب!

استعد الكلب لهجوم جديد، وظل شمس ينظر بذهول إلى الكلب ولون دمه حتى استوعب أن عليه الحركة. دخل بسرعة صرخًا من وجع الجرح ودفع الباب وأغلقه خلفه بسرعة. سمع صوت ارتطام قوي بالباب من الخارج وصوت زئير غاضب وخطوات تركض حول البيت!

أمسك شمس الدين ذراعه المجروح وفي يده الخنجر، الظلام يستفزه، يريد أن يطمأن على جرحه ويداويه، رفع خنجره بمحازاة كتفه المجروح وشعر بقطرات تسقط من الخنجر على الجرح، أبعد السلاح بسرعة فهو لا يعلم تأثير هذا الدم الملوث على جسده.

صوت الطرق عاد على الباب ولكن هذه المرة بشكل غاضب، الألم يزيد في كتفه، شعر بنيران حارقة تمتد إلى جسده، جلس أرضًا وحاول التنفس ببطء.

ظل على حاله لدقائق إلى أن شعر بألم في عقله والأرض تميد من تحته ونور ساطع يضرب وجهه فجأة.

***

حادثـــــــة قتـــل

أرض مزروعة بأنواع مختلفة من الفواكه والخضروات، بئر محفورة يقف حولها أهالي يدلون بدلاء تخرج لهم بماء عذب. ضحكات صافية لأطفال حول أمهاتهم يمرحون ويلعبون.

البشر ملابسهم غريبة، الرجال عرايا الجذع، يسترون عوراتهم بأقمشة من الكتان الملون، والنساء يكتسين بملابس زاهية وعرايا الذراع بقلادات وتمائم على صدورهن وكُحل يزيد عينيهم جمالًا، يشبهون الغجر الذي شاهدهم مرة في حوش الغجر القريب من قلعة الجبل، الغجر الذين يأتون إلى المحروسة هربًا من البلاد المجاورة والاضطاد الذي يتعرضون له بسبب ثقافتهم وحياتهم.

لكن المكان لا يشبهه، حتى ملابسهم حين دقق وجدها لا تُقارن بما يرتديه الغجر. لا يدري كيف جاء لهذا المكان، أخر ما يتذكره أنه جُرح في بيت الخانقاه. سمع جلبة تحدث حول البئر.

رجل طويل الشعر، عريض، أنفه طويل، يتشاجر مع آخر أقصر منه قامة ويعتدي عليه بالضرب المبرح.

الخوف ظهر على وجوه الحضور، الجميع ينظر إلى الضخم بخوف، كاد أحد الرجال أن يتدخل ولكن إشارة من رجل كهل

جعلته يتوقف.

اقترب شمس أكثر، القصير يتهم الضخم بأنه ساحر ويقف خلف اختفاء أطفال صغار وقتلهم لتنفيذ طقوسه الملعونة. الضخم يبتسم بسخرية ويكيل للأخر اللكمات ولا يدافع عن نفسه أو يبرر.

نظرات الجميع تقول إن القصير صادق، لكن لا أحد يتدخل، فقط صنعوا دائرة حولهما وتصاعدت همهماتهم ولا شئ آخر.

ثواني وسقط القصير أرضًا ثم أخرج سكينًا كان يخبئه في ظهره وغافل الضخم بطعنة في صدره حين اقترب منه.

قبل أن يستوعب الضخم دفعه القصير بقوة إلى البئر ليسقط فيه جثة دامية ويتعالى الصراخ.

تراجع القصير مذعورًا لا يدري كيف فعل فعلته، حاول الهرب، تفادى الجمع، أمسك به أحدهم وضربه بحجر شج رأسه، لكنه تملص وركض هاربًا من المكان فيما تعلقت الأنظار بالبئر الذي احتضن الجثة الدامية.

وقف شمس الدين يحاول استيعاب ما جرى أو ما جاء به ليشهد هذه الواقعة. انفض الجمع وتصاعد الدعاء باللعنات على من مات ومن هرب لأنهما دنسا البئر الوحيد في المنطقة الذي يوفر لهم الماء العذب، وليس أي تدنيس بل أنه تدنيس

بدم ساحر ملعون يعرفون مدى شروره.

حل الظلام سريعًا، لا أحد في المكان، البئر يقبع وحيدًا في الساحة، خفتت أصوات البشر والأطفال. تصاعد صوت غريب من البئر، صوت دقات غريبة، وكأنها نبضات قلب متضخمة، اقترب شمس الدين من البئر يستطلع مصدر الصوت، البئر حالك السواد، والصوت يأتي من الأسفل.

ظل شمس في موضعه يترقب أي شئ، بالتأكيد هو يحلم وسيستيقظ الآن ويختفي كل هذا، ظل ساكنًا ينظر إلى البئر حتى شعر باهتزاز بسيط قادمًا من الأسفل، زاد الاهتزاز وتصاعدت الدقات بشكل أعلى، تراجع إلى الخلف بخوف وبطء، وقبل أن يستوعب ظهر ظل أسود غير واضح المعالم تتوسطه عيون طويلة رمادية وتكون فوق فوهة البئر.

حبس شمس الدين أنفاسه، شعر بقلبه يكاد يقفز من صدره خوفًا. تحرك الظل الضخم وهبط على الأرض بقوام دخانية وتراقصت عيناه حوله تتفحص المكان ثم تصاعد صوت الدقات مجددًا وظهرت يد بشرية تلتها أخرى وبعدها وجه شخص!

الرجل الضخم الذي مات مطعونًا وسقط!

جسده يتحرك بطريقة غريبة، ذراعيه تتراقصان، هبط من

البئر وركع أمام الظل الضخم.

عوى ذئب لا يعلم شمس كيف ظهر، اقترب من الرجل وكشر على أنيابه، ابتسم الساقط في البئر ومد يده للأمام وكأنه يقيس حجم الذئب.

تشمم الحيوان الهواء ورفع رأسه للأعلى وعوى، وفجأة انقض الرجل عليه وأمسك وسطه ونشب فمه في عنق الحيوان الذي لم يتخيل أن يكون هو الضحية!

كاد شمس الدين أن يفرغ ما في معدته من المشهد، شهق ولم يستوعب ما يراه، الرجل المقتول يأكل عنق الذئب.

انتهى الرجل من فعلته ثم رفع قطعة من اللحم تتساقط منها الدم أمام وجهه وقربها من الظل وهو ينحني بتبجيل ثم استدار ونظر إلى شمس الدين!

صرخ شمس من نظرة الرجل. شاهده القاتل، يعلم بوجوده!

قبل أن يهرب أو يصرخ شعر بألم في عقله وفتح عينيه ووجد نفسه في غرفة البيت خلف الباب!

الشمس بادية في الخارج، ضوئها يبعث الأمان، تحسس كتفه فوجد جرحه غائرًا. بجانبه على الأرض الخنجر وعليه دم أسود متجلط غريب، سمع طرقًا على الباب وصوت

الشيخ عرابي يقول بلهفة وتساؤل: «افتح يا شمس الدين، هل أنت حي»؟!

***

نظرات حملت بعض التصديق وكثير من التكذيب كست وجه الشيخ عرابي وهو يستمع إلى شمس الدين الذي سرد ما حدث له بالتفاصيل وصولًا إلى الحلم الغريب والبئر.

أنهى قصته وسأل الشيخ عن سبب اختفائه أمس. حمل وجه عرابي تعابير مختلفة، مترددة، قبل أن يتحدث.

قال: «البصاصون يبحثون عنك باستماتة، كبيرهم لا يريد خلفه أي ذيول تؤرقه، السلطة لن ترتاح إلا حين يرون أماهم جثة جبران».

وسأل شمس بفضول: «أين ذهب؟ يقال إنك ذهبت إليه وساعدت في أن يهرب قبل أن يحاولوا قتلك»؟

ابتسم شمس ورد: «هرب مع بعض العربان الذين كانوا في زيارة للباب الأخضر لشراء البخور ومستلزمات لهم، سيكون في الصعيد إلى حين إثبات برائته وفضح مؤامرة شيخ البصاصين».

قرب الشيخ وجهه من شمس الدين وقال: «لن تمكث هنا

للأبد، سترحل إلى الصعيد وتلحق به في أقرب وقت، ولكن علينا الانتظار بضعة أيام حتى يهدأ كلاب البصاصين».

رد شمس بإحباط: «ومنذ متى يهدأ كلاب السلطة»!

جلس الشيخ عرابي على الأرض وقال موافقًا على قول شمس: «لا يهدأ صاحب سلطة إلا بعد محو كل ما يهدد كرسيه حتى إذا خلى له الوضع صنع لنفسه عدوًا جديدًا يرضي غروره».

وتابع: أقرب مثال على هذا ما فعله كبار الأمراء، وعلى رأسهم المنصور حسام الدين لاجين، بالإطاحة بكتبغا، ذهبوا إليه وهو في طريق عودته من الشام إلى مصر وهاجموا دهليزه فأفلت منهم وفر إلى دمشق ولجأ إلى قلعتها فقام الأمراء بتنصيب حسام الدين لاجين سلطانًا على البلاد في دمشق، بشرط ألا ينفرد برأى دونهم، وألا يقدم مماليكه أو يخول مملوكه منكوتمر عليهم، ولقبوه بالملك المنصور وهو ليس بمنصور أو انتصر.

وتنهد متعجبًا: لا أعلم كيف تدور دائرة السلطة، هي بدون أساس واضح أو قواعد ثابتة، ترسخها المصالح ويدفعها النفوذ وتقسيم المُلك. وأشار بيده ساخرًا: «أنت يا خشداشى، نائبًا على قلعة صرخد وأنت يا شمس الدين قرا سنقر المنصوري نائبًا للسلطنة وأنت يا سيف الدين سلار أستادارًا،

أما أنت يا منكوتمر فلك الإمارة وتصير أميرًا.

تمتم الشاب وهو ينظر حوله بحيرة: «يقسمهم جسد الوطن بلا رحمة وكأنه ملكًا لهم».

وسرح شمس بخياله وأردف: افتقد يومي العادي يا شيخنا، افتقد حين كنت أسير في شوارع المحروسة وأهلها الطيبين».

رد الشيخ عرابي بأسى: «ليس كل يوم عادي نعمة، النعمة في أن تجعل اليوم العادي مميزًا».

سأله شمس الدين: أليس الأولى أن نعيش يومنا العادي حتى إذا حان الأجل كُنا مرتاحين في رحلتنا؟

ضاقت عيني الشيخ وأجاب وهو ينهض مستندًا على عصابه:

-ومن يضمن لك أن يومك العادي هو السعادة؟ هل تتذكر أيام الألم أم أيامك العادية؟ ردد شمس من فوره وقد استوعب مقصد الشيخ: الألم لا يُنسى، يذكرنا بما مضى وكيف تخطيانه.

أماء عرابي برأسه وزاد: كل ألم يمر ولا شيء يستمر إلا السيرة، سيرتك إن واجهت وفزت، أو إن هربت وخسرت.

سيرتك وأنت رافع سيفك في وجه الظلم أو وأنت منحني الرأس أمام الطغاة، ما يصبر نفوسنا أن كل ألم ترياقه النسيان والصبر والجلد، وأحباء حولنا يهونون علينا المشقة.

وتابع وهو يربت على ظهر شمس الدين: كُل مرحلة في حياتك تترك ندبة تذكرك بما ممرت به، حين تتحسسها ستقول: كم كُنت شجاعًا.

وصل المعنى وفهم شمس، استشعر صدق الكلمات في حديث الشيخ. حملت عينيه بسمة وزاد مغيرًا دفة الحديث:

«الخانقاه يا شيخ عرابي، سرها كبير، كلاب مشوهة بدم غريب وكيان ضخم بلا ملامح يجول في شوارعها ليلًا».

وأضاف وهو يشير بيده محذرًا: «ولا تقل لي لكل شيء سر، كدت أفقد حياتي بسبب هذا ومن حقي معرفة ما يحدث».

اومأ الشيخ برأسه موافقًا. نظر إلى النافذة كأنه يرتب أفكاره وأقواله، وبدأ يسرد:

-قبل عشرات السنين حضر إلى المنطقة متصوفًا، رجل دين ورع، اسمه الشيخ يعقوب، كان حُسن السيرة، له أتباع ومريدين حتى أن البعض طالبه أن يكون سلطانًا على المحروسة ولكنه لفظ السلطة وتهرب من تلك المطالب ولكن

سيرته وصلت إلى الحكام.

علم الأمراء مدى خطورته، يتخوفون الطيبين، يخشون أصحاب الضمير، يبعدونهم عن الطريق بموت أو سجن، وعلم يعقوب أن هذا سيكون مصيره إن ظل وسط الناس فلجأ إلى الصحراء وأخذ منها مسكنًا ومقرًا، تشابك قدره مع قدر مخلوقات الأرض.

وتابع عرابي وهو يسترجع سيرة يعقوب: «أحب الحيوانات والنباتات واستمرت رحلته يتنقل من مكان إلى آخر حتى وطأت قدميه هنا، استقر وحيدًا وبدأ رحلة التعبد، ساعده في ذلك وجود بئر ماء عذب هنا، فكان الشيخ يعقوب يتغذى على ما يزرع وما يصطاد ويروي ظمأه بدون كد أو عناء.

مرت قافلة حج عبر الدرب السلطاني، وخرج عليها قطاع طرق ولكن الحجاج هربوا عبر الصحراء حتى وصلوا إلى هنا، علموا مكان الخانقاه التي تعبد هذا الرجل الصالح، أعجبهم الهدوء والسكينة، قرر بعضهم المكوث معه، كانوا سبعة، أربعة منهم بأزواجهم، كان المكان مستقرًا لهم.

وأردف عرابي: حين عادت بقية القافلة في الأيام التالية خرج عليهم اللصوص في الصحراء وقتلوهم ليُدفن معهم سر المكان، من بقوا بدأوا البناء، أحضروا الحجارة وشيدوا البيوت وكانت الخانقاه موطنًا لهم. تعبد وحياة، بُعد عن

مآسي البشر وألمهم، ظل الوضع هادئًا ومرت السنين وحملت النساء وكبر الأطفال وشهدت الخانقاه بذرة مجتمع قد تتشعب أوراقه لتصنع مكانًا للحالمين، ولكن لكل شيء نهاية.

ظل شمس الدين صامتًا، يقوده الفضول ويدفعه للصمت حتى يكمل الشيخ القصة، ليزيد عرابي:

-لا ندري ما حدث، لكن يقال إن جند الأمراء وصلوا إلى المكان وعرفوا مكان اختباء الشيخ وقتلوا من معه وألقوا جثتهم في البئر حتى لا تظهر الجثث وحين يراها يعقوب يهرب مجددًا ولكن الغريب أن يعقوب حين عاد مع عدد من أتباعه للتعبد اكتشفوا ما جرى ووجدوا أجساد الجند ممزقة بشكل بشع في الأرجاء ولا يدري أحد من فعل هذا.

أكمل عرابي بوجه ممتقع: من حينها بدأت أحداث غريبة تقع في الخانقاه ليلًا، ظهرت ظلال سوداء وقتلت أحد الرجال، ظهر الموتى للأحياء، لم يدرِ أحد ما يحدث أو سببه وارتحل الشيخ يعقوب ليومين لإيجاد حل وطلب من الأهالي الاختباء ليلًا في البيوت وإغلاقها ثم عاد وصارحهم بالحقيقة.

تنهد عرابي وأكمل: قال الشيخ يعقوب للأهالي إن البئر أصبح منفذًا للشر، يقود إلى عالم آخر أقل ما فيه من شر قادر على قتل عشرات الرجال، وطلب منهم أن يوهبوا

حياتهم لمنع تلك الشرور من الخروج وعلمهم بعض الأشياء التي تساعدهم في ذلك.

وتابع: علمنا أن الشر يزيد، يتشعب، الظلال تخرج من أرض الخانقاه لتهيئ عالمنا لحضور شر لا قبل لنا به، زادت الجرائم وخرجت من هنا الأوبئة والجنون حتى أن الطاعون يقال إنه حدث بسبب الشر الذي فُتح بابه بالخانقاه.

اقشعر جسد شمس بشكل واضح وسأل:

-ما الذي يعيش في البئر؟

أجاب عرابي:

-لا أحد يعلم، لكن العالمين قالوا إن هناك عدة بوابات في المحروسة تقود إلى جوف الأرض ولكل بوابة مفتاح هو الدم، هناك من يقدم قرابين اتقاء للشر القادم منها وهناك من يُخفي البوابة بالسحر لمنع الوصول إليها.

قاطعه شمس بسرعة:

-هذا ما حدث في الخانقاه؟

هز الشيخ رأسه مؤكدًا على حديث شمس:

-نعم، لأن بوابة الخانقاه هي الأكبر، منفذها يقود لأعظم الشرور، على عكس بقية البوابات الأخرى التي قد تقود

لشيطان ضعيف أو مخلوق مستكين أو مارد أو جن عتيد لكنه لا يقدر على الخروج.

بلع شمس ريقه بصوت عالي وقال بحسرة:

-أبي، هذا ما حدث مع أبي!

تعجب الشيخ وسأل:

-هل حدث شيء من هذا مع أبيك؟

سرد له شمس الدين قصته وما حدث مع أبيه وسط نظرات مذهولة، مرتعبة من عرابي، وفور أن انتهى الشاب قال الكهل بخوف:

-أنت موصوم بهم، ولهذا زاد نشاط الشر منذ أن جئت إلى المكان، يشتم رائحتك، يعلم بوجودك، يحاول النيل منك!

كاد أن يكمل الشيخ حديثه ولكن صوت طرقات على الباب أوقفته. نهض شمس وفتح ووجد أمامه رجلًا يبدو عليه الهيبة، صوته هادي، جسده عريض كما جبهته، نظر إليه وقال باقتضاب: «أريد الشيخ».

أزاح شمس نفسه عن الباب وخرج عرابي للرجل وحياه «مرحبًا، أخي حسن»، ثم أخذه خارجًا بعيدًا عن شمس الدين الذي وقف يشاهد الرجلين يتحدثان في شيء ما بحدة

واضحة ثم عاد له الشيخ وحيدًا ورحل الآخر.

وجهه متجهم، حمل بعض الغضب. قال عرابي بصوت مكتوم: «هل جرحت أحد الكلاب»؟

بلع شمس ريقه وهز رأسه بالإيجاب: «نعم، قلت لك أن أحد الكلاب جرحتني». انفعل الشيخ: «لم تقل لي إنك جرحت إحداها»!

هز شمس الدين يديه مبررًا: «نسيت، أخذنا الحديث»!

أعاد الشيخ نظره إلى الخارج وتفحص المكان والسماء ثم قال بغضب واضح: «الليلة لن تمر على خير، ستبقى معي في البيت ولن أتركك وحيدًا».

دوت رعدة في جسد شمس وسأل بخوف: «لماذا»؟! أجابه الشيخ ببرود وهو يعبث في عصاه بالرمال: «لأنهم لن يتركوك».

***

«أين جبران»؟ اتكأ السلطان لاجين على مسند مبطن بريش النعام وأطلق سؤاله ما جعل شيخ البصاصين ينتفض رغمًا عنه. لا يجد إجابة، الرجل تبخر، أطلق كلابه في كل الأزقة والشوارع واقتحم البيوت ولم يجد له أثرًا.

«سنجده يا مولاي». رد بصوت حاول جعله قويًا لكنه خانه وخرج ضعيفًا، ذليلًا.

نظر إليه السلطان طويلًا، اقتحم بنظارته حصون شجاعة الرجل ودكها، أخرج حروفه ثقيلة مُهددة: «أنت تعلم عقابك إن لم تجده».

أحنى شيخ البصاصين رأسه باحترام ورد: «أعلم». ورفع رأسه وزاد بصوت خرج قويًا هذه المرة: «سأحضر لك رأسه الليلة».

أمسك السلطان بكأس فضي موضوع بجانبه ورشف منه وأعاده وعينيه لم تنتقل عن الرجل، وقال بهدوء غريب:

-أنت تعلم لماذا اخترتك شيخ البصاصين؟

أجاب الرجل بخضوع:

-العلم عند الله، ثم مولاي.

أجابه الوالي:

-لأنك ذئب لا يشبع من الدم، وحول كل سلطان حيوانات تريد الانقضاض على غفلة لاقتناص جزء من الحكم، واخترتك لأنك كفيل بهذا، قادر على سحق من يريد اقتناص السلطة مني، لا تكل أو تمل.

وتابع: لأني تعلمت من الماضي، عرفت أن السلطة لها بريق الذهب تجذب أعين الطامعين، وما أكثرهم، يتكالب عليها الكل لاقتناص بعض منها أو كلها، ولهذا رأيتك مناسبًا للمرحلة، فلا يواجه الذئب الجشع إلا ضاري مثله.

مزجت ملامح سلمان بين الإحراج والسعادة، لا يدري هل كلمات السلطان تشيد به أم تقلل من شأنه وتصفه بالسفاح؟!

اكتفى بقول «أمر السلطان» وتراجع إلى الخلف منحنيًا ثم اعتدل وخرج وعقله يشتعل من الغضب. «أين ذهاب جبران»؟ تجهم وجهه لأنه يعلم أن الإجابة عند البصاص الهارب شمس الدين.

***

أرقـــــــام وطـــــــلاسم

حل الليل برمادية سمائه الواضحة، ليل ليس أسود حالك كما كل ليلة وكأن القمر يريد أن يشهد أحداث الساعات المقبلة. هكذا شعر شمس الدين حين نظر إلى السماء، بجانبه الشيخ عرابي وفي الغرفة المجاورة تنام زينب.

مر على العشاء ساعتين تقريبًا، الوضع هادئ، الظلام يغزو، لا أحداث غريبة أو رياح مثلما جرت العادة في الخانقاه، أمامهما صينية بها بقايا عشاء لم يُمس، وأكواب ماء ملونة فارغة تتناثر.

«هل فكرت في طريقة للانتقام من شيخ البصاصين»؟ طرح الشيخ عرابي السؤال، لم يرد شمس مباشرة، سرح بفكره، ليس لديه جواب على سؤال طالما سأله لنفسه ويعود كل مرة عقله خالي الوفاض.

«لا أعرف» تمتم بها بعدم ثقة، سمعها الشيخ واقترب برأسه من الشاب وزاد: «الصعيد آمن لك، تعلم ذلك».

قاطعه شمس الدين «القاهرة كذلك».

على وقع اسمها صمت مجددًا. كلما نظر إلى بلده التي ترعرع بها شعر باسمها ينبض، يقهر، يدافع، قاهرة تريد الحياة وليس الموت، لا تخضع لفاسد أو تركع لمغتصب، نيلها

شريان يشهد على سقوط وصعود أنظمة وحُكام ظنوا يومًا أنهم أصحاب اليد العليا فكانت قبورهم شاهدة على غرور كاذب، ووهم لم يرَ لمحة من الواقع يومًا.

أكمل شمس الدين وقد عبثت ملامحه بعض الشيء: «لا أحب الهروب، هربت كثيرًا وأنا صغير، كنت أهرب كلما مسني ضر، أهرب كلما شعرت أن الجدران تضيق حولي، ولكن في القاهرة شعرت أن بيوتها حصن، ناسها جُند، رمالها قبر أدفن فيه ما يضيق في نفسي».

استمع إليه الشيخ ونظر له بامتنان، عرابي يصدقه، يعلم أن لكل منطقة روح، لكل أرض جسد، المناطق تشعر بأصحابها، تؤنسهم، هواء كل بلد ليس له مثيل عند أخرى.

«أصبح لك معارك عديدة» قالها عرابي بصوت مرتجف استشعر منه شمس الدين خوف واضح. فهم الشاب ما يعنيه الكهل، معركة في القاهرة وأخرى في الخانقاه وأخرى مع نفسه ليروضها ويجعلها تتخلص من أثر الذكريات والماضي. الأخيرة هي الفاصلة لأنها إن ربح فيها ازدادت قوته وثقته.

هم أن يرد ويستكمل الحديث ولكن صوت طرق على الباب جعله يجفل، انتفض، هب واقفًا وتبادل النظر مع الشيخ عرابي الذي أشار له بالصمت وتحسس بعصاه ببطء حتى وصل إلى الباب ووضع أذنيه عليه.

لم يرى شمس الدين ملامح الشيخ، وإن رآها لعلم أن الرعب كسى وجهه الغضن، وحفر مزيد من الأخاديد في جلده.

«من»؟ همس بها الشاب واقترب من الشيخ. نظر إليه عرابي ولم يرد، أشار له بالصمت مجددًا. الطرق كما لو كان لشخص يدق بعصا على الباب الخشبي، رتم معين، طرقة ثم طرقة وما بينهما ٣ ثواني تقريبًا.

يعلم الشيخ عرابي أنه لا أحد من أهل الخانقاه يجرؤ على المجئ أو الخروج ليلًا، كما يعرف أن الليلة مصيرية بعد أن جرح شمس الدين أحد كلاب الخانقاه الملاعين.

توقف صوت الطرق، عم الصمت، لم يعد هناك وجود سوى لأنفاس بينة تتصاعد من شمس الدين إثر التوتر، قلبه يخفق، يدق بسرعة، شعر أن هناك شيء ما أصبح معهم في الغرفة ولا يدري كيف!

سمع أنفاس لاهثة آتية من جوانب الجدران وكأن لها روح، أحس بثقل في روحه جعله يتسمر مكانه. نظرات الشيخ عرابي توضح أنه يشعر بالأمر نفسه.

اقترب شمس من الشيخ أكثر، أصبح لصيقًا به، همس بصوت جاهد ليظهر واضحًا: «أشعر بوجود شيء معنا في

الغرفة».

هز عرابي رأسه، وافق على قول الشاب، هكذا يشعر، لا يدري كيف رغم أن النوافذ موصدة، الأبواب مغلقة، الأسقف مطلسمة ولا تسمح بمرور ذرة غبار، لكن ربما لأن شمس موصوم بهم وامتزج دمه بدم مخلوقات الجحيم فهم قادرين على تخطي الجدران لأجله.

«أبي». نطقتها زينب التي دخلت بصوت مرتجف، اقتربت أكثر وزادت: «أشعر بوجود شيء معي في الغرفة»!

أتمت جملتها وعاد الطرق مجددًا ومع عودته سمع الجميع صوت مثل هدير الماء يأتي من الجدران. «لا تتحركا» قالها الشيخ عرابي بخوف.

اقترب الثلاثة من بعضهم، احتضن الاب ابنته ومن جانبه شمس الذي تذكر هذا الموقف. الكبار يحاصرونه وهم في طريقهم للتضحية بأبيه!

ارتجف جسده أكثر مع الذكرى، تشنجت أطرافه وتقلصت أصابعه لا إراديًا، سمع همسًا في اذنيه لم يتبينه، كلمات غير واضحة، الشيخ يتلفت، زينب ترتعد، شمس يكاد أن يبكي.

الهدير مستمر كشلال لا ينتهي ماءه، أصبحت الأرض تهتز ببطء، تصادمت الأواني النحاسية مصدرة صوت احتكاك

المعدن بالمعدن، أصوات تكبير تأتي من الخارج، يبدو أن الأهالي يستشعرون وجود خطر كبير جعلهم ينسون حذرهم بعدم إصدار أصوات.

«أبي» نطقتها زينب باستنجاد، خوف، ارتعد جسدها مع كلمتها. ود شمس الدين أن يطمئنها لكن حرجه من الشيخ منعه، عرابي يتمتم بكلمات غير واضحة، أدعية أو قرآن أو طلاسم، لا يدري شمس الدين أو يتبين.

زاد الوضع سوءًا. شعر الشاب برجفة مفاجئة شملت جسده مثل برق ضرب مفاصله، شهق، تراجع إلى الخلف، اصطدم بشئ لين خلفه لم يتبينه، شعر بأيدي تمسك كتفه ورائحة نتنة تقترب من أنفه وصوت همس يداعب أذنيه بصوت قاسي «لقد عدُت».

نطقها صوت ما وسمع شيء يحتك بالأرض، صرخت زينب، كبر الشيخ عرابي، كاد شمس أن يهرب خارجًا لكنه تماسك.

الظلام لا يبين أي شئ، أحس شمس بجسم لين يحتك بجسده، لزج، دفع بيده الكيان الغريب حوله فغاصت يديه في شئ ما واصدمت بجسم صلب، تألم ورجع بظهره إلى الشيخ الذي أمسك كتفه وقال له آمرًا: «لا تتحرك».

توقف الهدير فجأة كما توقف اهتزاز الأرض، تنامى إلى

مسامعهم صرخات قادمة من الخارج وأصوات ركض تتصاعد وتعلو في الشارع، تصاعد صوت زينب بالدعاء.

تلفت شمس الدين حوله بذعر ورأى في الظلام عيون صفراء طويلة كعيون القطط، ارتعش، لم يدرِ بنفسه إلا وهو يمسك بطبق طعام من أسفله ويلقيه بقوة على العيون ليتصاعد دوي قوي في المكان وصوت الشيخ عرابي يقول بغضب «اللعنة على غبائك، لقد جعلتهم يعرفون مكاننا»!

قبل أن يستوعب شمس الدين ما فعل، سطع ضوء قوي مثل الشمس في الخارج تسللت خيوطه عبر الباب الخشبي الذين يقفون أمامه وكشف المكان. استمر الضوء لثواني قليلة، شاهد خلالها الشاب ما جعله يصرخ بشكل متواصل.

أمامه وجوه، عشرات الوجوه تتناثر على الحائط، مشوهة، عيونها طويلة، تتراقص ملامحها، تنظر له بكره وغل، وأسفلها حروف عربية متداخلة وأرقام تفصل بينها، التقطت عينيه اسم «شمس» وحولها ما يبدو أنه كأس مقلوب وداخله رقم ١ وكأس آخر وداخله ١١ أما الأكثر رعبًا فكان وجه لم ينسه طوال حياته. وجه أبيه!

شعره أشعث، لحيته نابتة، عينيه طويلة وفمه رفيع للغاية كأنه ممسوح، أما الاذنين فكانتا طويلتين مثل أذني الخفاش، كانوا مسوخًا داخل الحائط!

اختفى الضوء وقبل أن يحل الظلام ثانية، وجد زينب تترنح من صدمة المشهد وتسقط مغشية عليها، أما الشيخ عرابي أغمض عينيه وبدأ يدق بعصاه على الأرض وهو يتمتم بكلمات لم يتبينها.

ظلام، جسد يرتعش، أنفاس تتلاحق، عرق بارد يغمر الجسد، تنميل في الأطراف وبرودة في الأصابع وقلب يدق بعنف. جز شمس الدين على أسنانه، لا يدري هل يحلم أم ما يعيشه واقعًا. سمع صوت خطوات تقترب منه، خطوات ثقيلة، تزامنت مع أصوات فحيح بسيط تقترب من رأسه، تدور حوله.

«أغمض عينيك» قالها الشيخ عرابي بلهجة صارمة، آمرة. فعل شمس كما آمر، أغلق عينيه بقوة، ضم قبضتيه أملًا في قوة، كتم أنفاسه، سمع طرقات عصا الشيخ الخشبية تتصاعد، صوت عرابي يزيد بكلمات قالها بصوت عالي ومنخفض.

أحس بتيار دافئ حوله، دوامة تسحب الهواء من المكان، شهق، ضغط على عينيه أكثر ليغلقها، صوت الشيخ يزداد علوًا وانخفاضًا، طرقات عصاه أصبحت أسرع، الفحيح زاد، الخطوات الثقيلة أصبحت تركض حوله، شعر بأشياء تمس جسده ثم تبتعد.

أصبح صوت الشيخ أكثر حماسًا، زاد في تراتيله، انتهى بكلمة «يعقوب» ثم طرق بقوة بالغة بعصاه على الأرض حينها شعر شمس الدين بهواء ساخن يضرب جسده وفحيح غاضب يتصاعد في المكان أكثر ثم هدأ كل شئ.

صوت أنفاسه فقط هي التي يسمعها، يد وُضعت على كتفه فصرخ ودفعها بعيدًا. فتح عينيه ولم يجد سوى الظلام، صوت الشيخ يطمئنه: «إنه أنا لا تخف». أراد شمس أن يحتضن شيخه، يرتمي فيه كطفل ضائع. يد الشيخ على ذراعه وسمعه يقول: «انتهى كل شيء اليوم، لك عمر جديد يا ولدي».

هدأت ضربات قلبه المتتالية، شعر بالشيخ يربت على كتفه. قال عرابي بطمأنة: نم الآن وغدًا لنا حديث». أكمل جملته وطرق بعصاه على الأرض طرقتين متتاليتين شعر بعدها شمس بظلام يدك عقله ومادت به الأرض ودارت ثم سقط نائمًا!

أكفان بيضاء، مقابر متناثرة، قمر بضوء فضي يشع ضوءًا يكشف عن مساحة من الأشجار أمامه جافة أغصانها، تساقطت أوراقها، الأرض أسفله طينية مليئة بحفر تشبه القبور، طويلة وعميقة على أطرافها تكوم الطين وتجمع التراب.

وقف شمس الدين يرتجف أمام المشهد، لا يدري كيف وصل إلى هنا أو ما المكان، برودة تسري في جسده، ارتجافة تنفض بدنه، أفكار تتضارب في عقله جعلت عينيه تدور بخوف مجنون حوله وبدا ككقط سقط في مزرعة كلاب. خطا خطوة للأمام وشعر بقدميه تغوص في الطين، عفن يحيط ببرك مياه آسنة، رائحة غريبة تتصاعد وضباب أبيض يتصاعد من الأرض يبتلع تفاصيل المكان.

سمع صوت البوم، تعالى نباح الكلاب آتيًا من بعيد، لفت نظره وجود قبر محفور كبير يقع على امتداد بصره، ذهب إليه بخطوات مترددة، مُجبرة، يجذبه نداء خفي، تدفعه يد لا يراها.

وصل إلى المكان ونظر ليجد في الأسفل صندوق من الزمرد الأخضر، يعلم شكله جيدًا لأنه شاهده كثيرًا يأتي من الهند مغلفًا بشكل جميل ويشتريه الأمراء ليهادي به بعضهم البعض.

الصندوق مفتوح جزء منه، يشع منه ضوء فيروزي بسيط، حوله عفن غريب وأوراق لبلاب خضراء تداعبها ريح خفية جعلتها تتراقص بهدوء.

دوت زمجرة من بعيد فأجفل، نظر حوله مذعورًا ولم

تلتقط عينيه شيء، مجرد أشجار ميتة، جافة، بدت وكأنها تقف تتربص به، تراقبه، وأعلى أغصانها طيور سوداء تنظر إليه بشراسة.

«اقترب ولا تخف». سمع النداء مجهولًا مناديه، الصوت يتردد حوله عدة مرات «لا تخف، لا تخف، لا تخف». ويُعاد «اقترب ولا تخف، لا تخف».

بصوته جاف وحلق أكثر جفافًا سأل شمس الدين: «من هنا»! وزاد وبصره يجول حوله لعله يجد المنادي: «من يتحدث»؟!

علت زمجرة جديدة، طارت الطيور ورفرفت خوفًا، اهتزت الأرض والأشجار وتساقط التراب من حواف القبور. زاد الخوف واستوحش في نفس شمس، فكر في الهروب ولكن لا يدري إلى أين؟ الضباب يحجب ما حول المكان، مثل كون انحصر في المنطقة فقط.

«خذها» سمع الصوت مجددًا، آمرًا، مرتفعًا.

بلع شمس ريقه، دلك ذراعيه من البرد، نظر إلى القبر أمامه ووجد الزمرد يزداد تالقًا، ضوءه الفيروزي يشتد، بدا مثل شمس خضراء لامعة خرج شعاعها وبدد بعض عتمة المكان. أنزل قدميه اليمنى مسحورًا إلى القبر، أتبعها باليسرى دون

خوف، انحنى ومال بجسده وأمسك حافة القبر وزاد في نزوله، الضوء يشتد، الزمجرة تعلو وتقترب، الأرض ترتعش من أسفله.

وصل إلى الصندوق وأمسكه، سرت رعشة في جسده، الصندوق بارد كالثلج، فتحه كسحور، داخله قلادة مفرغة من المعدن الأسود وبها فص أحمر، حبل عنق أسود من الجلد تنتهي بمثلث وداخله دائرة صغيرة ورموز متداخلة، ما إن مسها حتى خرجت نار من القبر أمامه لفحت وجهه!

صرخ، تراجع إلى الخلف وسقط على ظهره في الطين، عامود من النار يعلو حتى تخطى حافة القبر، الزمجرة زادت علوًا حوله في المكان، انهارت حافة القبر من جانبه وسقط تراب على وجهه وعينيه، أغمضها وصرخ، رفع يديه يدافع عن عدو خفي.

شعر بأيادي تتحسس جسده من أسفل الأرض، مد يديه وحاول النهوض مستندًا على ذراعيه ورفس بقدميه لبلاب نمى عن فجأة واستوحش وحاول تكبيله، زاد في صراخه والقلادة في يده، الأيادي تمسك وسطه، صدره، رقبته، شعر بخنقة، ارتفع صراخه واحتد وتألم حلقه، اعتدل بجسده وحاول النهوض وفلح بعد معافرة مستمرة ليعتدل ويقف ويرى ما جعله يشعر أنه جُن.

مسخ قصير أسود، شعره طويل مجعد، رقبته ملتصقة في جسد مشوه أطرافه قصيرة وله عدة أيادي تشبه العنكبوت تخرج من جسده حتى بطنه! مسخ أتى من كوابيسه، لطالما تخيل هذا المسخ في عقله من صغره، وها هو يتجسد أمامه الآن!

اقترب منه المسخ، فتح فاه ظهرت فيه أسنان صغيرة حادة، لسانه مشقوق بالطول يتلاعب خارج فمه، شفاه ممسوحة ومقلتا عينيه بيضاء تحفها جلد رمادي بدون أجفان.

صرخ شمس الدين وألصق جسده في حافة القبر، اقترب المسخ أكثر وأصدر صوتًا كفحيح الثعبان، ثنى رقبته يمينًا ويسارًا واستطالت بشكل غريب، ثم نوح بصوت عالي رفيع جعل زمجرة من في الخارج تتوقف وصوت خطوات ثقيلة تقترب منه.

كاد أن يبكي من الخوف، ضم ركبتيه إلى صدره ودفس رأسه وهو ينظر بعينين نصف مغلقتين إلى المسخ، يده تقبض بشكل لا إرادي على القلادة، شعر بيد تمسك رأسه من الأعلى، تنزل إلى عنقه، رفس قدميه بقوة ورفع رأسه وحاول المقاومة ولكن اليد زادت في ضغطتها، شعر بالخنقة، نهض بظهره ليخفف حدة الاختناق، المسخ يراقبه دون حركة، لكن

نظراته مهددة، ولم يكف لسانه عن التراقص.

لمح شمس الدين اليد التي تخنقه، كانت مشعرة، محروقة، شعر بمرارة في فمه لا يدري من أين جاءت، صرخ وبصق ثم رفعته اليد بقوة أكبر من عنقه فأطال صراخه وأغمض عينيه وحين فتحها وجد أمامه الشيخ عرابي.

رائحة الكافور تعبق المكان، يد الشيخ تدلك رقبة شمس الذي تصاعدت أنفاسه بسرعة ونظر بغير استيعاب إلى عرابي الذي قال له بود: «زيت كافور، ليلة أمس كانت صعبة، ارتأيت أن أهون عليك ببعضه».

مد شمس يديه على جسده، وجد نفسه عاري الجذع، والشيخ يدلك جسده بقوة، امتزج الواقع بالحلم. «ما الذي في يدك»؟ طرح الكهل السؤال ولم يستوعب شمس الدين، رفع يده اليمنى ليجد فيها قلادة.. نفس القلادة التي كان يحلم بها ويمسكها!

***

عيون جاحظة، جسد يرتعش، أكف تمسك بعضها البعض. هكذا كان منظر شمس وهو يحكي ما جرى للشيخ عرابي الذي لم يقاطعه طوال حديثه وإن صدرت منه همهمات متقطعة تنم عن اهتمام بما يُقال.

انتهى شمس من السرد وطلب منه الشيخ أن يرى القلادة، رفعها الشاب والتقطها عرابي باهتمام وتفحصها بهدوء ونظر إلى الشاب وقال متعجبًا: «تشبه الرمز على قبر الشيخ يعقوب!

بدا الذهول على وجه شمس. «وكيف وصلت إلي، وما سرها؟! نهض الشيخ وأجاب وهو يلقي بملابس الشاب إليه ليرتديها: «سنعلم». وأردف دافعًا شمس للإسراع بإشارة من يده: «هيا بنا».

نهض شمس بدوره ورد باستغراب: «إلى أين»؟

نظر الشيخ عرابي إلى الخارج والتقط عصاه وقال بحسم: «إلى قبر الشيخ يعقوب، قبر بلا باب ولكن أظن أن لدينا المفتاح».

تعجب شمس ونظر إلى الشيخ، اقترب منه عرابي ورفع يد الشاب ليرى القلادة واستكمل: «ها هو المفتاح»!

***

معجزة في زمـــن بلا معجزات

هدهد بألوان زاهية، وقف يتراقص بأقدام رفيعة فوق غصن سقطت أوراقه الخضراء، كاد أن يقفز إلى غصن آخر لكنه توقف ليشاهد هذا البشري الذي يسير خلف آخر بعجالة.

أقدام مترددة لشمس الدين الذي يسير خلف الشيخ عرابي متجهين إلى مقام يعقوب في نهاية الخانقاه، وأسئلة متلاحقة من الشاب تحاصر الكهل باحثة عن إجابة مرضية، لكن الشيخ لا يرد.

طقس ليس بـ حار أو بارد، متضطرب كما حال المكان، حولهم صحراء صفراء رمالها لا يرون فيها على امتداد البصر أي شيء، داخلها بعض الأهالي يحملون أجولة من الدقيق والقمح خزينًا لهم، يضعون في بيوتهم كميات كبيرة من الزاد لضمان عدم نقص الغذاء عنهم رغم أن عددهم لا يتجاوز المائة.

تلاحقت خطوات الاثنين، اقترب المقام، له هيبة كبيرة، مساحته واسعة، حوائطه مرسوم عليها كلمات بخط حسن، أنيق، تذكر الله ورسوله، وتدعو لساكنه بالرحمة.

رائحة القرنفل والريحان واضحة رغم قلة الزرع في تلك الجهة، نثرتها الريح في أنوفهم فاستنشقها شمس الدين

وشعر بألفة غريبة، راحة كست جسده وأراحته رغم ما لاقاه.

وصلا إلى المقام ومد عرابي يده إلى شمس فأعطاه القلادة، التقطها الشيخ ووضعها على مساحة فارغة في الصخر على مقاسها.

انتظر شمس الدين أن يحدث أي شيء ولكن الوضع ظل كما هو، مرت ثواني، دقائق، نظر الشيخ حوله بترقب وشمس ينتظر معجزة انفتاح الصخر بقوة السحر.

قال عرابي: منذ أن قرر الشيخ يعقوب إخفاء المكان والبقاء فيه لحمايته ومن معه ولاحد أحد دخل إلى المكان.

تفحص الجدران بانبهار كأنه يراها لأول مرة وزاد:

-المقام هذا بُني في ليلة مظلمة، استيقظ الجميع ووجدوه وكأنه مبنيًا منذ سنين، يقول البعض إن هناك سحرة دفنوه هنا في مكان لا يعلمه أحد ووضعوا عليه حارسًا يمنع وصول الشر إليه أو ربما يمنع بروحه خروج شيء. لا أحد يعلم أو يعرف سر المكان ولكن يبدو أن القلادة هي مفتاح المقام، وكان الشيخ يعقوب ينتظر أن يعطيها لأحد من بعضه واختارك أنت لحكمة لا يعلمها إلا الله تعالى وشيخنا الراحل.

فهم شمس ما يقصده الشيخ، وسأل متعجبًا بعد أن طال الوقت: «ألن يُفتح المقام»؟

لم يجب الشيخ مباشرة، نظر حوله وبدا يفكر، في رأسه تدور علامات استفهام، من الواضح أن القلادة عبارة عن مفتاح، ومكانها واضح في المقام، لكن أين المشكلة؟!

ظل شمس في مكانه يترقب، إلى أن قال له الشيخ بلهفة وهو يمد يده بالقلادة: «جرب أنتَ»!

أخذ الشاب القلادة ووضعها في الفجوة الحجرية، ظل ينتظر ما يؤل إليه الأمر، لم يحدث شيء لثواني ثم سمع صوت رفرفة غريبة حوله، شعر بتيار من الهواء الساخن يلحف وجهه، اقشعر بدنه ونظر للشيخ الذي هز رأسه وأشار إلى شمس بالدخول!

«أين»! سأله الشاب، أشار الشيخ إلى المقام وابتسم.

سأل شمس مجددًا باستغراب: «المكان لازال مغلقًا»! غمز عرابي بعينه وقال: «جرب، وأدخل».

فكر شمس، مكان الباب مغلق بالحجارة، ومد يده ليتأ وتحسسها ووجدها صلبة!

كاد أن يتهم الشيخ بالجنون لكنه تماسك، أيريد منه عرابي أن يخوض بجسمه المادي في حجارة!

انتهى زمن المعجزات، هو ليس نبيًا يشير إلى حجر فينفلق

أو يضرب بعصاه البحر فيتسع مجراه، أو قمر فيُشق، هو شمس الدين الهارب من براثن الموت بسيف البصاصين، بشري ضعيف بلا كرامات أو معجزات في زمن انتهت فيه المعجزات.

اضطربت مشاعره، هل انتهت المعجزات حقًا بموت الأنبياء والرُسل؟ نعم انتهت، لكن السحر موجود، الجن والشياطين واقع، الغرائب التي واجهها منذ أن جاء إلى الخانقاه تؤكد ذلك، ألم جسده وجروحه لا يتجاهلها ويُكذبها إلا معدوم البصر والبصيرة.

التقط الشيخ ما يدور في عقل شمس، تنهد وأشار إلى المقام وقال: «بصيرتك ترى ما لا تراه بعينك، ربما ترى الحجارة وماهي بحجارة، بُني المقام بدون سبب، أتيت هنا لسبب، وأنت حين حلمت بمفتاحه واستيقظت وهو في يدك لم أسأل عن السبب أو الكيفية، يكفي أنه معك، ولهذا أعرف السر ولا تبحث عن الوسيلة».

ظل شمس ينظر إلى الشيخ، لا يدري ما يقول، هناك شيء غامض غريب، لماذا هو!

وضع القلادة مجددًا في التجويف وأغمض عينيه، استعان بالله تعالى، فكر في أن ما أمامه باب مفتوح، ظل ثابتًا في موضعه لدقائق، لم يستعجله الشيخ، أخذ يركز تفكيره في

أنه لا باب أمامه. مد جسده للأمام تجاه السور الحجري، لم يتحسس بيده، لم يتوقف إلى أن شعر بشيء لزج وثقيل في جسده، دفع نفسه أكثر إلى الأمام وزادت إرادته في المرور، أحس بطنين يضرب أذنيه، ألم في قدميه وكأنه يخوض في بحر من الزيت أو ماء ثقيل، زاد واستمر لثواني حتى شعر بخفة غريبة في بدنه. وحين فتح عينيه نظر حوله مبهورًا!

نافورة مياه، أشجار من العنب والموز، ورود مختلفة ألوانها وأشكالها، وقبة ضخمة تعلو أمامه، شاهقة، أسفلها حجرة حجرية خضراء مزينة بكلمات من خيوط الفضة وحولها أرقام عديدة متداخلة وبها فتحة صغيرة تكفي بالكاد لمرور شخص يزحف.

مساحة المكان ليست كبيرة، لكنها جميلة، متناسقة، أما الجدران من الداخل مدهونة بالرمادي بكلمات عربية كبيرة تقول «مقام الصالح يعقوب بن خرقاش بن بهروش، حامل ضياء النور، ابن العظم البار، مهيب الروح»!

ألقاب غريبة! تحسس الكلمات، لم تكن مكتوبة، بل محفورة وبالتشكيل، بخط جمالي منمق لم يره من قبل.

الأرض أسفله طينية رطبة، ندية، لا أثر فيها لخطوات أقدام، لم يدخل أي شخص المكان بالفعل منذ بنائه، لكن من زرع تلك الأشجار والنباتات، من يرويها؟!

طرح عقله السؤال، لكنه نفضه عن فكره، يريد الآن فقط معرفة دوره، سبب حصوله على المفتاح، سر المقام والخانقاه الغريبة تلك.

اتجه بخطوات متثاقلة، مترددة، إلى الفتحة التي تقود إلى المقام، انحنى وركع على ركبتيه ومد ذراعيه وبدأ يزحف إلى الداخل. رائحة مسك تعبق الهواء، برودة غريبة في الممر، ظل في زحفه أكثر من دقيقة حتى وصل إلى النهاية ووجد أمامه فراغ مظلم.

امتلئ جسده بالرهبة، خرج من النفق ونهض وعدل هندامه جسده ونفض عن ملابسه أي شيء قد يعلق بها. تفحص المكان حوله بفضول امتزج بالرعب والرهبة.

وجد نفسه في قاعة ضخمة، ضوءها أحمر هادئ مصدره قنديل من النحاس الأصفر يتدلى من السقف عبر سلسة حديدة طويلة معلقة من الأعلى، ثابتة، حولها رسومات متشعبة.

الحوائط بيضاء تمامًا، وفي منتصف القاعة ما يشبه المذبح، قطعة رخامية حمراء ضخمة موضوعة على كتلة رخامية أضخم مرسوم عليها عدة نجوم متقاطعة ونباتات طويلة له وجوه بشر يصرخون!

أسفل الرسمة خط محفور ينتهي بكلمات تغلف المذبح لكنها متداخلة بشكل لم يقدر أن يتبينه.

تصاعدت أصوات خطواته على الأرض الرخامية، شعر ببرودة تتصاعد من أسفله، شاهد بخار ماء بسيط يخرج منه كلما تنفس، كلما اقترب أكثر من المذبح زادت البرودة، حتى وصل إليه ومد يده يتحسسه، بارد كالثلج، نقوشه محفورة بشكل محترف، أسفله يوجد ثقوب في الأرض وممرات صغيرة للغاية تنتهي إلى الحوائط في جانبي المذبح.

سمع صوت همهمة حوله، نظر بخوف ووجد إضاءة القنديل أعلاه تزيد، نوره يمتد سطوعًا فيكشف المكان أكثر وأكثر. البرد ضرب أطرافه، نفخ في يديه بحرارة وفكر في العودة إلى الخارج فلا شيء هنا سيعطيه إجابة.

تراجع إلى الخلف وتفحص المكان سريعًا ببصره ثم استعد للعودة كما دخل لكنه تفاجئ باختفاء النفق الذي دخل منه. دار ببصره حوله بخوف، ولم يجد سوى الحوائط المغلقة، لا شيء يقود للخارج، لقد حُبس!

***

طعام مقابـــــل الســـــــر

استند حارس شيخ البصاصين على الحائط يرتاح بعد عناء العمل، انتهز فرصة اجتماع رئيسه بالمؤتمرين بأمره ليرتاح قليلًا.

ما أن مر وقت قليل حتى دخل عليه رجل يبدو على هيئته الخوف، جميل الهيئة، أشعث الشعر، يرتدي جلبابًا نظيفًا، وفي عينيه لمعة جنون واضحة، أو ربما لمعة جشع.

«ماذا تريد يا رجل»؟ سأله الحارس بغلظة بعد أن شعر بوجود الرجل الثقيل.

أجاب الرجل بعينين ظهرت فيهما الجنون والخوف: «مال، أريد مال، معي معلومة أريد مبادلتها بالمال».

اقترب منه الحارس وجذبه من رقبته وأمسكها بقوة خانقًا الرجل وقال مهددًا: «أي معلومة تلك»؟

بلع الرجل ريقه وقال بنبرة خافتة مستسلمة: «المال، أريد المال أولًا».

نظر الحارس حوله ثم صفع الرجل على وجهه بقوة جعلته يبكي: «قل وإلا قتلتك».

قابل الرجل عنف الحارس بجنون أكثر، دفع الحارس بيده

وتراجع إلى الخلف وصرخ «أريد مكافأتي أولًا».

خرج شيخ البصاصين على أثر الضوضاء الصادرة من الاثنين وفي عينيه شر مستتر: «ما هذه الجلبة»؟

ونظر إلى الرجل وتابع: «ومن هذا»؟

أجابه الحارس بسرعة: «هذا الرجل يريد..» قبل أن يكمل الحارس جملته قاطعه الرجل: «مال، أريد مكافأة وسأدلكم على مكان شمس الدين».

تراقصت إبتسامة شرسة على وجه شيخ البصاصين وجذب الرجل إلى الداخل وأشار للحارس: «أحضر له سرة من المال حالًا».

وربت على ظهر الرجل وأكمل: «سأرضيك حتى يمتلئ كرشك بالمال بدلًا من الطعام، ها، قل لي، أين هو»؟

وأغلق الباب ليستمع إلى ما جاء به الرجل.

.....

فاحت رائحة الطعام الشهي من بيت الشيخ عرابي، وقفت زينب تطهو بإبتسامة تمليء شفتيها، تتذكر وجه شمس الدين فيدق قلبها وتزيد إبتسامتها.

«رائحة شهية يا زينب». قالها أبوها حين دخل واقترب

منها وقبّل رأسها. نظرت إلى والدها بامتنان وردت بخجل: «من جزيل فضلك يا أبي».

استكملت تقليب الطعام بمعلقة نحاسية طويلة وهي تنظر إلى والدها نظرات متقطعة.

ابتسم الشيخ وسألها كمن يعرف ما تفكر فيه: «ما بك»؟

تنحنحت في إحراج وردت: «شاهدتك صباحًا ومعك شمس الدين تذهبان إلى مقام الشيخ يعقوب».

ابتسم واكتفى بالرد: «نعم».

زادت بفضول ولهفة: «هل هناك شيء ما»؟

صمت قليلًا وقال: «لا، لديه عمل سيؤديه». ضحكت بفرح وسألت: «حسنًا سأنهي الطعام وسيكون جاهزًا لتأخذه إليه حين يعود».

تجهم وجه عرابي وبدا عليه تفكير عميق وردد بصوت منخفض التقطته زينب وجعل جسدها يرتجف: «هذا إن عاد».

***

كولهيت و٣ طبقات

تصاعدت أصوات أنفاس شمس الدين المتوترة، تشابكت أصابعه من التفكير، دار حول نفسه عدة مرات، تفحص بنظره ما حوله دون جدوى. حُبس في المكان بشكل غريب لم يتوقعه.

تحسس المفتاح الذي في يده ورفعه إلى فمه وكأنه يُناجيه، لماذا حُبس؟ ألم يكن دوره أن يأتي إلى المكان ليعرف؟

تفحص المكان ثانية ببصره، يشبه السجن، المكان مخصص لحبس شئ ما، يشعر بوجود رجة بسيطة للغاية في الأرض.

استلقى بسرعة ووضع أذنه اليمنى على الأرض وأطرق السمع، الأرض ترتجف بشكل بسيط جدًا، هناك شيء ما في الأسفل!

المقام هنا مخصص لحبس شيء، والضريح يشبه الضريح الذي في بلدته، يخرج منه مسوخ أو تقدم فيه قرابين.

عليه الخروج من هنا، وضع يده على وجهه يفكر، شعر برعب بسيط، لا يريد المجازفة بالبقاء هنا، بالتأكيد هناك طريقة للخروج!

السجن دائمًا له مفتاح، المقام في الخارج له مفتاح وهو قلادة، والمذبح يقدم فيه قرابين بشرية أو حيوانية وبالتالي الوضع يستوجب وجود طريقة لخروج البشر.

ما العامل المشترك بين البشر وفي نفس الوقت يمنع خروج أي مخلوقات أخرى غير بشرية؟

الصوت؟ قرب فمه من مكان النفق الذي اختفى وتكلم «أنا شمس الدين، أفتح»!

لم يحدث شيء!

بالتأكيد هناك شيء آخر!

الدم!

الدم هو الشيء الوحيد المشترك بين البشر ولا يوجد لدى المسوخ بدليل لون الدماء الغريب الذي شاهده حين واجه كلاب الخانقاه!

خطرت في رأسه فكرة واختمرت، وضع سن المفتاح في راحة يده وضغط عليه بقوة شديدة وصدرت منه أصوات تألم.

سال خط دم رفيع من يده ووضعه على المكان الذي يفترض أن يكون فيه المخرج ثم انتظر لثواني.

على صوت طقطقة غريبة ثم ظهر أمامه نفق أكبر من الذي كان موجودًا!

قفز بفرحة وعزم أمره على المضي، انحنى ودخل بجذعه وزحف داخل النفق، الظلام يسود حوله، النفق يضيق، سمع أصوات تزحف ورائه ولكن زاوية حركته وضيق المكان منعاه من الالتفات، وإن شعر برعب يغمره.

شعر بأشياء تتحسس قدميه من الخلف، شهق، عبأ أنفاسًا في صدره وأطلقها على دفعات حارة، لا يريد الصراخ وأن يترك نفسه فريسة للخوف يسيطرعليه. الخوف إن سيطر تمكن ومحى العقل. يعلم هذا عن تجربة.

كاد أن يقترب من فتحة النفق، رأى أمامه ضوء بسيط في النهاية، تحرك جسده أسرع متحفزًا، يترقب الخروج والحرية، وإن كان يشغله أنه نفق غير النفق. وصل إلى النهاية ونزل من علو لا يزيد عن متر، سقط أرضًا وشعر بعظامه تئن بعد سقوط على ما يشبه الصخر.

المكان واسع، قاعة أخرى لكنها مختلفة عما كان فيها، حوائطها بها لمعان غريب، إضاءتها خافتة، نظر خلفه ليرى ما كان معه في النفق فلمح عينين حمراوتين تنظران إليه من الظلام، سرعان ما خفتت واختفت.

بلع ريقه الجاف، تحسس يديه ونفض عنها تراب ورمال بسيطة علقت بها. تحسس الجدران حوله، تشبه المعدن!

قاعة صغيرة، أعلاها فتحة زجاجية تُدخل نور الشمس البسيط، وجدرانها تلمع كأنها مصنوعة من معدن فضي أو نحاسي.

تتوسط القاعة بئر حوافها خضراء، مطلية جوانبها برمادي كئيب، أعلاها صخرة ضخمة تسد منفذها وفوقها لفافة غريبة.

اقترب بخطوات مترددة، لمح بجانب عينيه ظلال تتراقص وحين نظر لم يجد أي شيء. وحيد في المكان لكن رغم ذلك يشعر بوجود أحد معه.

قادته قدماه إلى البئر، صعد درجتين تقودان إليه، مد يده والتقط اللفافة ووجدها من المعدن، نحاسية! فضها بحرص وفرد أطرافها على صخرة البئر، ضوء الشمس الخافت لم يبين ما فيها، لكن الواضح أن بها حروف وأرقام محفورة، تحسسها بأصبعه. محفورة بعناية بالغة، لا يدري كيف جُرح لكنه وجد دمًا يسيل من أصبعه الذي يتحسس به وسقط على اللفافة!

بدأت كلمات تظهر فيها بشكل غريب بمجرد أن مسها الدم،

تشكلت حروف وأرقام مضيئة، ظهرت ما تبدو أنها خريطة وكلمة مضيئة أسفلها تقول «كولهيت»!

وكلمات أخرى بدأت تظهر مكتوبة بالعربية «في القبر، أسفل الطبقة الثالثة من الحجارة»!

اقشعر جسده، تسارعت أنفاسه، نظر حوله بخوف وسمع صوت هسيس قادم من النفق خلفه. لم تمر ثواني حتى شاهد أمامه ظل لشخص يتشكل في ظلام القاعة منحورًا، تتدلى رأسه جانبًا وعينيه رماديتين، جسده متحلل، قدميه حافتين ضخمتين، رأسه الذي يكاد أن يسقط من فوق كتفيه أعلاه عمامة رمادية مهترئة. اهتز الرجل وانتفض كأنه ممسوس ثم قال بصوت أجش عميق: «كولهيت»!

صُعق شمس الدين، ملامح الرجل مخيفة، ميت أمامه فكيف يتحدث!

ولماذا يردد نفس الكلمة على اللفافة!

كاد شمس الدين أن يصرخ من مشاهدة الرجل لكنه تماسك وتراجع إلى الجهة الأخرى من القاعة.

اقترب الرجل بخطوات بطيئة تجاه شمس، رأسه تكاد أن تسقط، وكرر الكلمة «كولهيت»، ثم رفع عينيه وزام بشكل غريب وسقطت رأسه أرضًا وتحولت إلى دود تثاقب وتحرك

وهو يصدر أزيزًا مخيفًا!

صرخ شمس من الصدمة وركض تجاه النفق وفي يده اللفافة وانحنى بسرعة ودخل زاحفًا وظل يزحف حتى شعر بألم حاد في راحة يديه ولكنه لم يتوقف، صوت أنفاس خلفه تزداد، وخمشات تضرب باطن قدميه، وهواء ساخن يتحرك بجانب رأسه، واصل الزحف وأغمض عينيه وهو يكاد أن يبكي حتى شعر بهواء بارد يضرب وجهه وحين فتح عينيه وجد نفسه يسقط على الأرض. التفت ووجد نفسه قد خرج من مقام الشيخ يعقوب!

***

«هذا كل ما حدث» قالها شمس للشيخ عرابي الذي هز رأسه ورد بهدوء: «سأذهب للمحروسة وأبحث عن معنى هذه الكلمة الغريبة، بالتأكيد لها سر».

وأضاف بلهجة تحذيرية: احترس وخذ حذرك فبدخولك المقام أصبحت داخل لعنة الخانقاه.

وربت على ركبة شمس ونهض متثاقلًا متجهًا إلى بيته لتوديع زينب والخروج.

أُغلق شمس الباب وظل وحيدًا، لديه هاجس أن الكلمة التي سمعها لها علاقة بقبر الشيخ يعقوب، لا يوجد قبر أخر يجب

البحث فيه، القبر يقع في كولهيت وأسفله يوجد السر، ولكن أين يمكن أن يُدفن رجل مثل يعقوب بدون أن يبحث عنه أحد!

قرافات المحروسة معدودة، قرافة المقطم والقرافة الكبرى والقرافة الصغرى، لا يمكن أن يُدفن الشيخ في مكان يلفت إليه الأنظار، والمشهد الذي شاهده حين دخل قبر يعقوب يدل على مكان به أشجار، صخري ربما، ولمح عدة شواهد قبور حوله أي أنه قرافة وليس قبرًا منفصلًا.

المكان ليس ببعيد عن الخانقاه لأنه بحسب الشيخ عرابي، مات يعقوب ودُفن في نفس الليلة، فهل تكون الجبانة الشرقية؟

فكر في الاحتمال وقرر أن يخرج من الخانقاه ليتأكد من استنتاجه ولكن عليه أولًا انتظار الشيخ عرابي.

***

ارتسمت ابتسامة ثقة على شفتي الشيخ عرابي، خطت قدماه ببطء وروية فوق الرمال الناعمة متجهًا إلى الخانقاه، سلك الدرب السلطاني وقابل في وجهته عددًا من الحرس متجهين إلى قلعة الجبل، احنى رأسه احترامًا كي لا يشك فيه أحد، وأكمل مسيرته بعد أن نقض الرجل الذي أوصله

بحماره فلسات نظير توصيله.

علم سر كولهيت، عرف معنى الكلمة، ليست عربية ولا أصل لها في المعاجم ولكن بمعارفه استطاع الوصول إلى رجل يدرس تاريخ القدماء. الكلمة قديمة، أقدم من الحضارة وعمر أجداد أجداده. تلاحقت أنفاسه إثر الإجهاد ومسح عرقًا تصبب على جبيته وخاض في الطريق وحيدًا.

مر الوقت وهو يسير، سهام الشمس تصيب جسده وتنهكه، العرق يغمره ويحرق عينيه، العباءة تخنق روحه ولكن المسير لابد منه ليصل قبل الغروب. وصل إلى المكان المختار واستعد لتلاوة طلسم الدخول للخانقاه لكنه توقف فجأة.

أدار رأسه خلفه فلم يجد سوى تلال رملية وربوات صخرية، نخل موزع تمتد جذوره لباطن الأرض يرتوي، لماذا يشعر أن هناك من يراقبه؟

ضاقت عينيه وبدا مثل الثعلب، ثم طرق بعكازه أرضًا وأكمل الطلسم لتتصاعد الرمال أمامه وتهب رياح حارة لفحت عنقه ووجهه، أغمض عينيه لثواني حتى هدأ الوضع وحين فتحها كانت الخانقاه أمامه بسورها القصير.

هم أن يدلف من بوابتها ولكنه شعر بخطوات راكضة خلفه وقبل أن يلتفت ليرى الراكض شعر بقبضة تصعق رأسه

وظلام يكتف عقله وجسده يترنح ويسقط أرضًا مرتطمًا بالرمال، وأخر ما شاهده كانت أقدام راكضة حوله وصوت سيوف تنسال من مغامدها ورجال يصرخون «الخائن شمس الدين هنا»!

***

سقوط في الفخ

ظلام الغرفة يحيط به رغم نهار الخارج، الهدوء يسود، وعقل شمس الدين لا يكف عن الصراخ والعناد، يفكر ويفكر ويفكر، يبحث ويحلل، يريد الوصول إلى حقيقة كلمة كولهيت، يريد معرفة ما يحدث وسببه، تعود أن لكل شيء في الحياة سبب وهدف، لا يعلمه بشر ولكنه طريق إجباري يسلكه الإنسان ليصل إلى وجهة معينة مكتوبة في صحيفته من قبل بدء الخليقة.

أي شئ مكتوب في صحيفتك يا شمس؟ تمتم بالسؤال لنفسه وهو يستند بيديه على الحائط أمامه وينظر أرضًا.

سمع صوت ركض في الخارج وأصوات أبواب تُفتح ورجال يتحدثون، اقترب من النافذة وفتح جزء بسيط منها ونظر من شقاقها ووجد أمامه عدة رجال يتحركون، سيوفهم مشهورة، خوذاتهم المعدنية معروفة، والصديري الأسود الجلدي يدل على هويتهم، عسس وبصاصون في الخانقاه!

قبل أن يتساءل عقله عن كيفية دخولهم المكان سمع طرقًا على الباب، اقترب بحذر وسأل «من»؟! أتاه صوت زينب مرتجفًا: «أفتح بسرعة، يبحثون عنك»!

أزاح المزلاج ودخلت زينب، أنفاسها متضطربة، عيناها

تدوران بخوف، نظرت حولها وأشارت إلى الخارج «دخلوا الخانقاه باحثين عنك»!

أغلق الباب وسألها بسرعة «أين الشيخ عرابي»؟ زاد صوتها اضطرابًا: «شاهدته مكبلًا بالأغلال مع الجند يقفون في مدخل الخانقاه».

تصاعدت دقات قلب شمس، ضم قبضتيه بخوف، شعر بزينب تقترب منه وأنفاسها الحارة قريبة من وجهه «أنا خائفة»!

أراد أن يضمها إلى صدره يطمئنها لكنه تراجع إلى الخلف خطوة ثم اتجه إلى المنضة الخشبية التي تتوسط المكان ومد يده أسفلها ملتقطًا سيفه.

أشار لها بحزم «أبقي هنا». أردت أن تصرخ لتسأله أين يذهب لكنه أجابها من تلقاء نفسه «سأنقذ الشيخ عرابي ونهرب من المكان».

تسلل شمس إلى الخارج ببطء، دار حول المنزل بهدوء كي لا يشاهده أحد، شاهد العسس يسألون الأهالي ونظرات الاستغراب على وجوههم من وجود المكان وتكوينه المعماري الغريب، شاهد الخوف على وجوه الناس، لا يريدون كشف السر وهو لا يريد لهم هذا.

لمح من بعيد الجند يحاصون الشيخ عرابي، يقف بينهم مستسلمًا، قدماه لا تقويان على الوقوف، يترنح بعض الشئ، في يديه أغلال حديدية مربوطة في قطعة خشبية عريضة أمام بطنه.

تسارعت خطوات شمس حتى وصل إلى بداية الخانقاه، تفحص ببصره عدد الجند. لا يزيدون عن عشرة، نظر إلى الشمس ووجد أنها تقترب من المغيب، إن غربت خسر الجميع، يعلم هذا جيدًا. دقق بصره حوله ووجد الصدمة!

الخناقاة لم تُغلق. ملامح الذعر على وجه الشيخ عرابي يعرفها جيدًا، الرجل يرتعش، ليس خوفًا من الجند بل يبدو أنه فتح بوابة ظهور الخانقاه ولم يغلقها. تمنى أن يكون تحليله خاطئًا.

«من أنت»؟ سمع السؤال من شخص خلفه، التفت ووجده أحد الجند، تأكد من أن لثامه يخفي وجهه جيدًا وأجاب: «يحيى بن القومعي». اقترب منه الجندي وسأله بشك: «أكشف عن وجهك، هل أنت أحد أهالي المكان»؟!

اقترب شمس من الرجل أكثر وأجاب وهو يمد يديه ليزيح اللثام: «نعم، أحد الأهالي».

زاد فضول الجندي ليرى وجه شمس الذي اقترب حتى

أصبح على بعد خطوات من الرجل ونزع اللثام بسرعة وهو ينقض على الجندي ويضع يده على فمه لمنعه من الصراخ ويده الأخرى على رقبة الرجل ليوقعه على ركبته.

حاول الرجل التملص وتصاعد صوت همهمته ومحاولة صراخه ولكن شمس عاجله بضربة قوية على رأسه بكوعه لم تفقده الوعي ولكنها أدارت رأسه. عاجله بضربة أخرى أقوى من ذي قبل ليسقط الرجل في دوامة عدم الوعي ويسحبه شمس خلف المنزل.

نظر حوله بخوف ليرى إن كان شاهده أحد واطمأن أن الوضع آمنًا ثم نظر إلى الجسد المسجي أمامه وعقله يفكر في خطة مناسبة لتحرير الشيخ والخروج من المكان.

***

«نعلم أنك هنا يا شمس الدين» صرخ بها قائد الجند بصوت عالي وحوله ٤ من جنده فيما توزع الباقين في أنحاء المكان للحراسة.

لاحقته نظرات الأهالي المرعوبة ما جعله يزيد في صراخه: «أظهر وإلا قتلنا الشيخ عرابي».

ومد يديه لعنق الشيخ ونظر حوله بترقب. مرت ثواني ولا شئ يتحرك إلا صدور الخائفين، زعق الرجل مجددًا: «نعلم

أنك هنا، أحد الرجال شاهدك وأنت تدخل مع عرابي أول مرة، ولم تخرج من حينها، وراقبنا شيخك حتى عاد مجددًا وعرفنا مكانك».

كاد أن يستكمل تهديده ولكنه توقف حين شاهد أحد جنوده يقترب منه وهو يشير له بصمت إلى أحد المنازل.

فهم القائد ما يريده الجندي، نظر وهز رأسه آمرًا أحد جنوده ليذهب مع اثنين آخرين إلى المنزل المُشار إليه. وقفوا أمام الباب، نظروا إلى بعضهم البعض ثم في وقت واحد ركلوا خشبه وانهار بقوتهم ودخلوا.

دخل الرجال ومرت أكثر من دقيقة اقترب خلالها الرجل الأول الذي أشار إلى البيت من قائد الجند حتى وصل إليه ودفعه بقوة فجأة إلى الخلف وشهر سيفه في وجهه ووضع سن السلاح على رقبته.

فجر الموقف ذهول الجميع، ولكن حين نزع الرجل اللثام فهموا.

«شمس الدين» قالها القائد بمقت واضح، وهو يرفع عنقه كي لا يصيبه سن السيف. ابتسم شمس واقترب أكثر من الرجل وقال صارخًا، مهددًا: «فك قيد الشيخ عرابي». وزاد في صرامة: «حالًا».

نظر القائد إلى جنوده الاثنين الباقين قربه ليتجه أحدهما إلى الشيخ ويخرج سلسلة مفاتيح ضخمة سوداء ويختار أحد مفاتيحها ويفك القيد.

سقطت القطعة الخشبية بقيدها على الأرض ونظر الشيخ بإمتنان إلى شمس الذي بادله النظرة بتشجيع.

اقترب شمس من القائد وقال له بحسم: «سأذهب من هنا ولن أعود ثانية، هؤلاء الناس لاذنب لهم، أترك المكان ولا تعد إليهم مجددًا».

نظر الرجل بخوف حوله وقبل أن يرد سمع صوتًا من خلفه يصرخ «أترك القائد وإلا نحرنا الفتاة».

التفت شمس إلى المتحدث ليجد أحد الحرس يمسك زينب ويضع نصلًا على رقبتها.

عيناها مغرقتان بالدموع، شعرها مبعثر على وجهها، تبكي بحرقة وعلى وجهها الأسف الشديد.

اقترب الجندي أكثر بزينب وزاد في وعيده: «سأنحرها، أقسم لك».

نظر شمس حوله، لا مهرب، اتسعت إبتسامة القائد وبدت لمحة سخرية في صوته وهو يقول: «يبدو أنها تهمك، الميزة

أن المنازل هنا عليها أسماء أصحابها، وفي منزلك المكتوب عليه شمس وجدناها».

وتابع ساخرًا وهو ينظر إلى الشيخ عرابي: ماذا كانت تفعل ابنتك في بيت الشاب الأعزب يا شيخ؟

لم يرد الشيخ، امتقع وجعه، أما شمس شعر بمرارة الهزيمة في فمه، أراد أن يبصق في وجه القائد، أراد أن يصرخ، يركله في وجهه المستفز، تراجعت يده بسن سيفه عن عنق الرجل، وبدا الخوف جليًا على وجه عرابي الذي ينتظر ردة فعل شمس.

تذكر الشاب والده، لديه عقدة من التضحية، يكره أن يؤُذى شخص بسببه، أن يحمل همًا فوق كاهله يزداد مع السنين فيحني هامته ثقلًا.

دار في رأسه عدة سيناريوهات ومرت الثواني بطيئة كالسنين حتى ألقى شمس سيفه وقال باستسلام: «أتركها، أنا لك».

ركض الجند ناحية شمس وكال أحدهم لكمة قوية إلى فكه أسقطته أرضًا. لم ينهض، لا يريد العراك، سيتحمل ولكن يجب أن ينتهي الأمر بدون ضحايا.

تلقى ركلات أكثر في جميع أنحاء جسده، تصارعت عليه

أقدام الغاضبين، سمع صراخ زينب ونواحها، رجاء الشيخ وطلبه أن يتركوا الشاب، دارت عينيه في وجوه الضاربين وبدت كأسود ضارية تحاصر ضحيتها المستسلمة لأنيابهم.

أغمض عينيه من الألم ولكنه فتحها حين سمع الشيخ عرابي يقول بصراخ «أرض الجنة».

توقف الجميع، نظروا إلى عرابي الذي زاد وعينيه باكيتين: «هي أرض الجنة، لغة الأقدمين». لم يفهم الحضور أي شئ مما قاله الشيخ عدا شمس الذي ابتسم رغم ألمه وشعر بأيدي الجند ترفعه ليقف والقطعة الخشبية توضع على صدره والأغلال تقيد يديه. نظر إلى الشيخ عرابي وابتسم، وإلى زينب فدمعت عينينه.

اقترب القائد من شمس وقال بغضب واضح: «تهددني أنا يا لعين، يا زاني»؟ أراد شمس أن يرد ويسب الرجل بلحيته الرمادية المشعثة وسمنته البادية لكنه صمت، آثر السلامة وبلع الإهانة.

يبدو أن صمت شمس زاد الرجل غضبًا لأنه أخرج سكينه وقال: «أمرني السلطان بنفسه أن أحضرك حيًا حين علم أنك سبب هروب جبران» وزاد في جذل: لكن ليس شرطًا أن يكون بقية الخونة أحياء».

أتم جملته وأدار السكين وأغمده في جسد عرابي الذي لم يتوقع هذه الفعلة.

صرخ شمس من الصدمة، أراد أن يتقدم لينقذ الشيخ لكن ركلات الجند أسقطته أرضًا، لمح زينب تركض وتصرخ، تلطم على وجهها، نحيبها يزداد وبكائها يمزق القلب، ركعت على الأرض وحملت رأس والدها وهي تتحسس دمه وتزيد في الصراخ.

ابتسم الرجل بسخرية وأمر الجند: «أحضروه، واتركوا الباقين لكن اكسروا أسلحتهم وتلك العكاكيز التي يتكئون عليها».

لبى الجند الأمر واتجهوا إلى الرجال وأخذوا العكاكيز وتصاعد صوت تكسير خشبها وسط نظرات الأهالي المذهولة، فيما حاول ٣ شباب الدفاع عن أنفسهم ولكنهم تلقوا ضربات موجوعة طرحتهم أرضًا.

تناثر حطام العكاكيز على الأرض، ونظر الأهالي إلى بعضهم البعض بخوف، يعلمون معنى ما حدث لكنهم أقسموا على عدم البوح بسر المكان ولو كانت نهايتهم.

اتجهوا باستسلام وحملوا الشيخ، يعلمون أنهم ضعفاء، تعودوا على الخوف، حتى أنه لم يتدخل أحد منهم للفتك

بالحرس، الخوف كبل قلوبهم، تجسد في ملامحهم من طول الاختباء.

شعر شمس بالأيادي تحمله وتدفعه للتقدم، وجد عربية السجن التي تجرها الخيل تبدو كقفص لا فكاك منه، انهالت دموع عينيه حزنًا، نظر خلفه ووجد زينب تقف مذهولة وسط الخناقاة، عينيها تحمل صدمة، جسدها ينتفض ببطء وجسدها النحيل تحيط بها أيادي نساء الخانقاه ليذهبن بها إلى بيت الشيخ لتغسيله.

وقف بعض الرجال ينظرون بخوف حولهم مع بداية غروب الشمس وتسابق القرص المضيء للاختفاء خلف الغيوم السوداء.

ركب شمس العربية مدفوعًا بالأيدي حتى جلس أرضًا ونظر من شباكها الخشبي نحوهم، رأى الرعب على وجوه الأهالي، يعلم فيما يفكرون.

ليل الخانقاه ملعون، والآن هذه اللعنة ستخرج إلى البشر بعد ظهور الخانقاه وفك الحماية، علم الآن أن الشيخ عرابي لم يلحق أن يخفي الخاناقاة بعد دخوله، وها هو الآن قد رحل وسيرحل الجميع من بعده!

***

رحلـــــــة إلى قلعـــــــة الجبل

لم يدري كم مر من الوقت، بمجرد أن خرجوا من الخناقاة وجد غطاء غليظ من الصوف المدبوغ بالأسود، يوضع على القفص يمنعه من مشاهدة ما في الخارج، التقطت أنفه في الطريق روائح التوابل المختلفة، روث البهائم الهائمة التي تحمل بضائع التجار أو تنقل الناس. أصوات الزبائن وفصال المشترين مع التجار، ارتجت العربية عدة مرات، تهادت يمينًا ويسارًا، وارتفعت بعض الشئ وكأنها تصعد طريقًا للأعلى ثم سارت على استواء ثم بدأت مرحلة النزول والتفت في عدة طرق.

سمع أصوات اللعب بالسيوف، تدريبات العسكر، أصوات أبواق، يبدو أنه مر على معسكر التدريب قرب القلعة، ألم موت الشيخ عرابي مثل يد مضمومة تعتصر قلبه بقوة، يشعل بثقل في صدره، جبال بصخورها تضغط على قفصه الصدري حتى شعر باختناق لا يرحل. مات الرجل الذي يقدره ويبجله، مات لأنه دافع عنه وحماه، زاد شعور القهر داخله، تراكمت حجارة الذنب حتى أصبحت جبلًا يضغط على عقله وروحه.

لم يخرجه من تفكيره إلا صوت القائد القاتل وهو يأمر «افتح البوابة» ثم صوت تروس تدور وحركة السجن المتنقل

التي استمرت لدقائق ثم توقف.

أزاح أحد الجند الغطاء ونظر شمس حوله، وصل قلعة الجبل، خاضت العربة باب السر (الباب الأوسط) ومرت وسط أحجاره الضخمة وأسواره العالية، الباب المخصص لدخول وخروج أكابر الأمراء وخواص الدولة كالوزير وكاتب السر وغيرهما.

ممرات القلعة ضخمة، المشاعل معلقة على الجانبين، الحرس حوله يدفعونه للتحرك، صعد سلالم عديدة، قابل وحدات من الجند ينظرون له باستغراب. دقائق ووصل إلى قاعة الحكم التي يجلس فيها السلطان.

زادت دقات قلبه، شعر بخوف كاسح حين تذكر خانقاه الأخضر، الشرور تحررت، البشر لا يعلمون والأهالي لا يقدرون على المواجهة والسلطة لا تهمها إلا المصالح والمنافع وإن مات الناس أجمعين.

لا يعلم متى دخل وأصبح أمام السلطان بعباءته المطرزة وعرشه الخشبي اللامع والوسادة الناعمة التي يتكئ عليها.

«لماذا لم تنفذ أمرنا يا شمس الدين»؟

صمت شمس ولم يرد. أشار السلطان بيده غاضبًا وشعر شمس بركلة من أحد الحرس في جنبه الأيمن سقط على

إثرها أرضًا.

سعل بقوة ورفع رأسه للسلطان وقال:

-جبران برئ، لا يستحق القتل، شيخ البصاصين يريد أن يفكك حلفائك ليستفرد بك وحده، يريدك أن تكون طوع أمره، تآمر مع أمراء لتخسر حلفاءك.

صرخ فيه السلطان بغضب:

-أحترس وأنت تتحدث مع السلطان يا كلب، وزاد بغضب مستعر: «لولا سمعتك الطيبة وتدخل بعض التجار الكبار للوساطة في أمرك لأمرت الجند بقتلك فور العثور عليك».

تهكم شمس بشكل واضح وقال:

-ليتهم فعلوا.

رفع السلطان حاجبه متعجبًا من شجاعة شمس، وصمت ثواني وقال:

-أين جبران؟

ابتسم شمس بتحدي ورد:

-أنت تعلم أنه قد هرب، هو في مكان آمن، واطمئن، جبران لا يريد سلطتك وعلى كل حال القادم لن يكون فيه سلطة أو

حكم.

ارتسمت الدهشة على وجه السلطان وسأل: «القادم»؟!

نظر شمس حوله إلى الحرس وقال:

-القادم أسود من الليل الحالك، لعنة ستحل على المحروسة لو لم تحررني الآن.

طرق السلطان بقبضته على مسند كرسيه وصرخ بغضب:

-هل تهددني؟

أجاب شمس:

-معاذ الله، لكنها الحقيقة، كل دقيقة أمضيها هنا تزيد لعنة لن تتخلص منها بسهولة، لعنة أشد وطأة من حكم زائل وسلطة لا تستمر.

زاد التعجب على وجه السلطان وأشار بأصبعه منذرًا:

-تحدث، أي لعنة تلك؟ مؤامرة أكبر، هل يجهزون لعودة الناصر؟

ضحك شمس وتوقف ليسعل من أثر الضرب، ثم قال:

-ليست كل اللعنات بشرية يا مولاي السلطان، حين هربت واختبأت كنت في مكان لا يصله بشر، مكان محصن يمنع

شرور لا قبل لنا بها من الخروج والآن بعد القبض علي وقتل الشيخ عرابي أصبح هذا المكان غير محمي، لأن جنودك الأغبياء قتلوا حامل سر المكان وحطموا أدوات الحماية التي تمنع خروج تلك الشرور للمحروسة وأهلها.

ساد الصمت لثواني وبدى البرود على وجه السلطان ثم نظر بغضب إلى قائد الجند الذي قتل عرابي:

-هل قتلت نفس بريئة؟

أشاح الرجل بيده مدافعًا وقال مبررًا فعلته:

-حمى الخائن يا مولاي السلطان، آواه في بيته وخالف أمرك.

ظل السلطان مسلطًا نظره على القائد ثم أشار إلى قائد حرسه الذي يقف بجانبه:

-أودعوه السجن حتى أنظر في أمره.

وتابع وهو ينظر إلى شمس الدين:

-وضعوا هذا أيضًا في السجن.

طرق شمس الدين برأسه أرضًا وجره الحرس إلى الخارج فيما نهض السلطان وعينيه تنظر إلى الخارج عبر النافذة المزخرفة وعقله يسأل: «أي لعنة يقصدها شمس إن صدق؟

***

طفـــــــل ملعون

تكاثفت السحب لتحجب ضوء القمر المنير، وإن تسلل بعض ضوء هربًا ليعانق جدران قصر فخم مبني من الرخام الأبيض، يطوف بين أروقته وغرفه نسيم بارد محمل بالورد والقرنفل المزروع في الحديقة.

تنهدت نرجس وأخذت أنفاس متلاحقة من النسيم كعادتها كل ليلة، زوجها التاجر مأمون لا يحرمها من شيء، وفر لها القصر والجواري لخدمتها، يعاملها مثل الأميرة رغم أنها لم تنجب له ولدًا كما أراد وتمنى، رضا بإرادة الله وقسمته ونصيبه من الحياة، دائمًا ما يقول لها «الرزق مُقسم بين مال وبنون ورضا وصحة، وكل بأوزان حصيلتها في النهاية واحدة وإن اختلفت النسب».

ابتسمت حين تذكرت جملته، ومدت يدها تزيح خصلات شعر بنية عاكست وجهها، مدت قدميها للأمام استندت بها على وسادة ناعمة.

أمامها تكعيبة العنب الأخضر، شجرة الجميز، البرتقال، فاكهة أحبتها وطلبت زراعتها ولُبي طلبها فور أن رغبت.

جلست تدندن إحدى الألحان التي سمعتها أثناء حضورها حضرة صوفية قبل أيام، تتذكر ضرب الرق والطبول، نفخ

الزمر، تمايل المُحبين لله والراغبين في القرب منه.

لطالما سألت نفسها كيف يكون الغناء المُلحن وصلًا لله، لكنها حين دندنت كلمات المحُبين شعرت برجفة في جسدها وتبسمت. عرفت أن كل ما يمس القلب ويرجفه؛ يُقربه من خالقه.

كادت أن تنادي على خادمتها زمردة لتحضر لها كوب من العناب البارد لكنها توقفت حين سمعت صوت قادم من خلفها لطفل رضيع يبكي.

اعتدلت في جلستها ونهضت بتثاقل جهة الصوت القادم من خلف عامود رخامي مزخرف بآيات الله الكريمة، التفت حوله ووجدت أمامها في الظلام كيان صغير يقف، يشبه الطفل، ملامحه غير واضحة من العتمة.

«من أنت يا صغير»؟ قالتها بصوتها الرقيق وانتظرت الإجابة لكن لم تجد سوى تهتهة وبكاء مكتوم.

اقتربت أكثر ورفعت طرف ثوبها من الأرض وانحنت وهي تمد يدها ممسكة بمشعل معلق بجانبها وقربت ضوءه من الطفل ثم أطلقت صرخة عالية وركضت.

فستانها الأبيض يطير خلفها، شعرها يتراقص ليلحق بجسدها الذي لم تتخيل أن يركض بهذه السرعة، صرخاتها لم

تتوقف حتى سمعت صوت حولها لجارياتها.

لم يدخل أي خدم رجال لنجدتها لأن تلك المنطقة محرمة عليهم. التفت الجواري حولها وسؤالهن واحد «ماذا حدث»؟

لم تقدر على الإجابة، كلماتها اختنقت، جسدها لا يكف عن الارتجاف عندًا فيها، يدها ترتعش. أشارت إلى الركن المظلم وقالت ببكاء وحرقة: «الطفل».

ازدادت الأسئلة حولها «أي طفل»! أكملت ببكاء أكثر: «طفل محروق، مشوه، نظر لي وأسنانه مدببة مثل الشيطان»!

سرت رعدة في أجسام الجميع، ووضعت نرجس يدها على فمها في محاولة فاشلة لتوقف بكاءها ولكن عقلها لم يطرد صورة الطفل. لم تقل لهم ما أخافها أكثر. لم تقل لهم إن الطفل كان يشبه وجهها!

***

الشيطان في الظـــــــل

تناقلت أقدام الصغار تقفز فوق رسم على الأرض، يلعبون بفرحة، استغلوا وجود العائلة في المنزل ولقاء الأحباب لخطف بعض الوقت في مزيد من اللعب.

٤ أطفال، أصغرهم أمير، بشعره القصير وجلبابه المنضبط على جسده النحيف. بيتهم بجانب قصر التاجر مأمون، بيت بسيط حصل عليه جدهم مقابل خدمات قدمها للسلطان فمنحه الأرض وبناها الجد لتجتمع فيها العائلة كل أسبوع.

البيت يحيط به سياج من الشجر، خلفه ورود مزروعة وبركة مياه تحيط بها كتل الرخام والحجارة الضخمة، وأمامهم صحراء شاسعة إن نظروا إليها لا يرون نهايتها.

لطالما خاف أمير من الصحراء، بسنه الصغير الذي لا يتعدى العشرة أعوام، يرى فيها كل غموض وخوف. سمع كثيرًا عن ضواري يعيشون فيها، شياطين وجن يعبثون في رمالها، جثث مدفونة وكنوز منسية. هكذا كان يسمع من أهله، لكن ما يخيفه أكثر منها، هو غموضها.

قبل يومين، سمع والده يتحدث مع جده ويقول له إنه شاهد رجل يدعى الشيخ عرابي ومعه آخر اسمه شمس الدين يدخلون إلى الصحراء ويتجهون داخلها وكأنهم

يعرفون مسارًا يذهبون إليه.

يومها نهره الجد وطلب منه ألا يتحدث مع أحد في ذلك.

أمه تنعت أبوه بالجشع، لكنه لا يعلم معنى الكلمة ولكنها بالتأكيد شئ غير لطيف، أما اليوم فشاهد أبوه يتحرك في الصباح الباكر ويخرج من البيت وحين استيقظ الجد كان غاضبًا ويردد «سيفعلها الغبي ويقودهم إليه».

لا يعلم ما المقصود ولكن نظرات الجد كانت حزينة، مليئة بخذلان واضح.

لم يأت والده حتى الآن، لكنه شاهد قبل ساعات عددًا من الجند المدججين بالسلاح يخوضون الصحراء، وحين شاهدهم جده ضرب كفًا على كف في حسرة ثم دخل غرفته وطرق بابها بقوة ومن حينها لم يخرج.

ارتجت الأرض فجأة. توقف الأطفال عن اللعب، نظروا إلى بعضهم البعض وخرج الآباء من البيت ينظرون حولهم متعجبين، شاهد الجميع ضوء أزرق خاطف يظهر وسط الصحراء ويختفي، ثم سمعوا أصوات ركض غريبة حولهم ولم يروا أي شخص أو كائن!

ساد الخوف، أمسك كل اب بيد طفله، ثم خرج الجد من خلوته التي اختارها وأمر الجميع بالدخول إلى البيت وإغلاق

الأبواب والنوافذ. كان غاضبًا بحق، ثائرًا بشكل لم يره أمير من قبل. لم يدرِ أحد سبب أمره أو غضبه ولكنهم نفذوا ما قال دون تعليق أو سؤال.

دخل الجميع لكن أمير ظل في الخارج، وقف ينظر حوله بفضول طفل، نسوه من توتر ما حدث، أبوه ليس هنا وأمه في البيت بالغورية. سمع اسمه يتردد في الداخل «أين أمير»؟ وكاد أن يدخل خلف أقرانه لكنه توقف فجأة بعد أن شد شيء ما انتباهه.

أمامه على مرمى البصر شاهد ظلًا يتشكل. قطعة سوداء تتمدد ويظهر لها ملامح، هل هذا ما يطلقون عليه شيطان؟!

تقول أمه وهي تحفظه كتاب الله إن الشيطان كان من الجن وفسق عن أمر ربه، والجن مخلوقون من نار، فلماذا يرى المخلوق أمامه مليئًا بالسواد!

بقدميه الصغيرين اتجه أمير ببطء مدفوعًا بالفضول، الظل يتشكل، أصبح له ذراعين، قدمين، جسم وبطن ورأس ولكنها ليست كأي رأس. ضخمة، بها خيوط رمادية وعينين مغمضتين! كان مثل حجمه، صغيرا!

ظل واقفًا وتسمر في مكانه، يشعر بخوف غريب، أنفاسه تتلاحق، برودة تحاصره. «أين أمير» الصراخ في الداخل

يزيد، سمع صوت الباب يُفتح، عمه يقف على عتبة الباب يشير إليه بالدخول صارخًا، الظل يتقدم منه وشعر ببرودة أكثر حوله، مد يده بفضول إلى الأمام يتحسس الظل الذي أصبح أمامه. زاد عمه في صراخه وركض تجاهه وأمسك قطعة من الحجر قذفها على الظل وهو يصرخ ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

وصلت أنامل أمير إلى الظل وشعر بلزوجة غريبة وكأنه يغوص في قطعة من الزبد السائح. ذكريات غريبة ومشاهد متلاحقة احتلت عقله، تذكر والده حين كان يضربه ويجلده لأنه كذب مرة، تذكر صديقه عمران وهو يركله في بطنه حين خسر اللعب معه، شعر من داخله بسواد لم يشعر به قبلًا. شعر يد عمه على كتفه، المخلوق أمامه يتراجع وسط الظلام ويختفي وفمه الدقيق يُفتح ويغلق وكأنه يناديه. شعر بأيادي عمه تحمله فوق كتفه وركض به إلى داخل البيت.

جسد أمير ينتفض، خرج صوته ضعيفًا، مهزوزًا. وجه جده أمامه وكوب ماء على شفتيه، تمتم برعب وكلمات مرتعشة «أنا خائف» ثم نظر حوله بذعر وأغشى عليه.

***

«هناك أشياء غريبة تحدث يا مولاي، أشياء ليس لها تفسير أو سبب، وكأن لعنة حلت على أهل المحروسة»!

قالها قائد حرس السلطان وأكمل بخوف: «شهادات من الأهالي تقول إن هناك ما يشبه المسوخ يرونها في الظلام، أصوات ركض وصراخ في الأماكن المظلمة، موتى يظهرون للأحياء وكلاب بأشكال غريبة تركض في الشوارع وتختفي فجأة».

نظر السلطان لاجين إلى قائد حرسه وقال بفوران وغضب:

«هل تريد القول إن هناك لعنة على أرضنا؟ أن أخرج للعامة وأقول لهم إن هناك مسوخًا تمرح وسطهم فدعونا نرى ما سنفعل»؟!

تنحنح قائد الحرس وفكر في طريقة لامتصاص غضب السلطان ولكن الحقيقة هي ما يقول. استجمع شجاعته وزاد مدافعًا عن نفسه:

-ليس قولي، بل قول العامة، حتى التاجر مأمون تعرضت لزوجته لهذا الأمر، جاء إلى شيخ البصاصين وشكا له ما حدث وزوجته في قصرها ترتجف. وزاد بصوت منخفض: تقول إنها شاهدت طفلًا مسخًا كان يبكي واختفى!

ورفع صوته أكثر وتابع: وهناك بيوت قريبة من الصحراء التي وجدوا فيها شمس الدين جميعها تعرضت لهذا».

صمت السلطان لثواني وكأنه يفكر في الأمر ثم قال:

-أرسل مجموعة كبيرة من العسس والبصاصين ليروا ما هناك ويحضروا لي تفاصيل ما يحدث.

انحنى القائد وتراجع إلى الخلف ورد:

«أمر مولاي السلطان».

خرج وظل لاجين في صمته، كل ما يشغل عقله صورة شمس الدين وهو يقول «هناك لعنة ستخرج». هل هذا ما كان يقصده شمس أم أن القادم أسوأ؟

***

بصاصون وعسس

تسابقت الخيل وعلى متنها العسس والبصاصين، أكثر من ٢٠ شخص منهم انتشروا في المنطقة حول الصحراء التي خرج منها شمس وأكد الأهالي وجود أشياء غريبة تحدث فيها. الجند لديهم أمرًا مباشرًا بالتقصي والتحقيق فيما يراه الأهالي.

شهادات عديدة ومخاوف مختلفة انطلقت من أفواه الأهالي، ارتعاش الأجساد يؤكد صدقهم لكن حديثهم لا يصدقه عاقل.

«أكمل ماشاهدت» قالها محمد النعماني، أحد البصاصين المكلفين بالمهمة، لأحد التجار الذي نظر حوله بخوف وقال وهو يسرد ما جرى معه:

-كنت في طريقي إلى المنزل على حصاني ومعي بضاعة قادمة من دمشق، توابل مختلفة وحرير، سلكت الطريق وفجأة سمعت الركض حولي، نظرت خلفي ووجدت ما يشبه بخار ماء يخرج من أفواه مخفية أصحابها، لم أرَ إلا تنفسهم ولم ألاحظ إلا زفير يستحيل أن يخرج من بشر.

تصاعدت أنفاس الرجل وأكمل:

-زدت من سرعتي والركض خلفي يزيد، ثم شعرت بما يشبه

أيادي توضع على كتفي وظهري رغم سرعتي، استفحل بي الرعب وتمكن. شعرت بخنقة مفاجئة وخوف لم أشعر به من قبل، صرخت وكدت أن أفقد السيطرة على حصاني حتى وصلت إلى نهاية الطريق وتوقفت ونظرت حولي فلم أسمع أصوات ركض.

وجحظت عيناه وتابع بكلمات تقطر رعبًا: شعرت حينها بألم في كتفي وظهري، ألم حارق.

سأله محمد بفضول وإن كانت ملامحه تدل على عدم تصديقه ما يقال:

-وماذا حدث بعدها؟

زادت نظرة الرعب في عيني الرجل وخلع عبائته وصديري يرتدي ولف جسده إلى البصاص وقال: «وجدت هذا حين عدت إلى بيتي»!

اتسعت حدقتا محمد وفتح فمه في ذهول وشعر بانقباضة في قلبه.

جسد الرجل عليه آثار حروق بدت مثل حوافر أو أصابع طويلة نارية ضربت جلده وسلخته!

***

«ما هذا الجنون» صرخ بها السلطان بغضب وهو ينظر إلى ظهر التاجر الذي أحضره البصاص.

مد يده يتحسس الجرح رغم ألم الرجل ووجد الجرح محفورًا في جسده، العلامات ليست مثل أدوات التعذيب في سجون المحروسة، تبدو كأصابع طويلة نارية تركت بصمتها على ظهر الرجل دون رحمة.

استمع السلطان إلى حديث التاجر مجددًا، صمت وطال صمته، تعجب قائد جنده وبجانبه شيخ البصاصين الذي لم يصدق ما يراه.

بداخله يرفض تلك الأشياء، يرفض كل ما هو ليس أمامه، لا يؤمن بغيبيات أو غرائب قد تحدث، حاول أن يضع تفسيرًا لما يرى فلم يجد فصمت.

«احضروا شمس الدين» قالها السلطان فجأة فتبادل الحضور النظر ثم ذهب أحد الحرس مسرعين إلى الخارج لإحضاره من سجن قلعة الجبل، فيما تبادل شيخ البصاصين وقائد حرس السلطان نظرات ذات مغزى ولم يعلقا.

ظل السلطان على حاله، ينظر حوله وعينيه في عالم آخر، يفكر، حين تولى حكم المحروسة أقسم على أن يحميها ويصونها، لكنه لم يفعل، تمادى في إعطاء السلطة لمن لا

يستحق، تغافل عن دوره كحاكم وزاد في أول أيامه من الضرائب ليجمع المال الذي يشتري به سكوت ويضمن به ولاء الأمراء، وضع المعارضين في سجون لا يخرجون منها إلا بالولاء له أو محمولين على أكفة المشيعين إلى مثواهم الأخير.

هل ما يحدث الآن لعنة؟ عقاب من الله؟ درس ليعود إلى صوابه؟ لكن منذ متى يعطي الله دروسًا لشخص واحد ويعاني منه أبرياء آخرين؟ يقولون إن الأوبئة عقاب من الله، فهل الغيبيات وظهور المسوخ عقاب كذلك؟ سرح بعقله أكثر. هو ليس شخصًا واحدًا، بل حاكم، ربما ذنب الآخرين أنهم صمتوا على ما فعل، استسلموا، تواطئ بعضهم لأجل ضمان حياة كريمة لهم ولأسرهم، تغافل آخرين عن أخطائه، ساد الفساد واستشرى في بدن المحروسة، يغذيه الخوف والأنانية.

يشعر من داخله أن ما يحدث عقاب ولعنة للجميع، لكن إن كانت كذلك كيف يتخطاها؟ تُرى، هل الاعتراف بالذنب يمحيه؟ أم أن أخذ الفعل هو ما يقلل الذنب ويخفف وطأته؟

يعلم أنه في عقر المؤامرات، الجميع يتآمر، نائبه، الأمير بيسري، أمراء كثر، حتى خشداشيه لا يثق فيهم رغم الرابطة بينهم، فكيف يأمن على نفسه وسلطانه وسط كل هذا!

وصل إلى تلك النقطة ودخل الحارس وأمامه شمس الدين الذي نظر حوله متعجبًا وقابلته نظرة حاقدة من شيخ البصاصين.

فور أن استقر واقفًا التفت الجميع إلى السلطان لاجين الذي نظر إلى الجميع بحدة وعينيه ثابتتان. أمسك بطرف شاربه وعدل عبائته المطرزة ثم قالها بكل حسم: «بأمر السلطان، قررنا تعيين شمس الدين شيخًا للبصاصين».

انفجرت المفاجأة والجمت الألسنة. تبادل الجميع النظر وعلت نظرة الغضب على محيا شيخ البصاصين ليكمل السلطان موجهًا قوله إلى كبير حرسه: أمرنا بحبس شيخ البصاصين السابق والتحقيق معه في إدعاءت تآمره مع أمراء للإطاحة بي».

وتابع: كما أمرنا بالبحث عن جبران وضمان سلامته وأخذ شهادته أمام كتاب الله عما نُسب إليه من التآمر وإطلاق سراحه إن ثبتت براءته.

ونظر إلى شمس الدين وختم قوله: «أما أنت، تخلص من اللعنة التي حلت على أرض المحروسة، ولا تعد قبل أن يصبح الوضع آمنًا».

***

انشقاق القبور

تراصت هامات النخل والأشجار، صنعت مشهدًا مهيبًا مع ظلمة الليل وتمام القمر ونعيق غربان وبوم وحشرات الليل المستيقظة، مزيج مرعب توسطته جبانات قديمة ولحود مطعونة في الطين تكشف أسماء الموتى بخط يدوي غير منمق، يدور داخلها أبناء آوي وكلاب تعوي دون كلل أو ملل.

اقترب كلب أجرب نحيل بانت عظامه من سوء التغذية وتتشمم الأرض باحثًا عن غذاء مُهمل، منسي، ثم فقد الأمل وعوى راكضًا في اتجاه آخر، إلى أن وقف عند شاهد قبر أسفل شجرة جميز عالية جذعها، راسخة جذورها في باطن الأرض، تشمم التربة وبدأ الحفر بمخالب اسودت وعفنت، ولم تمر ثواني حتى عوى وتراجع إلى الخلف بخوف، رفع عقيرته بعواء طويل انتهى بصياح خائف حين وجد الأرض تتشقق، تتدافع طينتها يمينًا ويسارًا.

شُقت كوردة تتفح، ظهرت يد متحللة، أكلها الدود وبان بياض عظمها من أثر الزمن، أمسكت بالطين ونهضت ليظهر جسد عظمي متحلل يقف مترنحًا تساقط منه الدود في مشهد مقزز.

ركض الكلب هربًا، تسابق بني جلده حوله مذعورين، نافس

العواء الخائف سكون الموت، زادت الأرض في رجها وشُقت طينتها ليخرج من بطنها موتى مكثوا فيها دهرًا وخرجوا منها جماعات.

ارتفعت أصوات الزمجرة الغاضبة، علت أصوات احتكاك العظم بالعظم، هبط ضباب كثيف لا يدري أحد من أين جاء وغطى كل شئ وإن ظهرت وسطه ومضات لعيون حمراء لامعة تظهر كل حين وتختفي فجأة.

استمر الوضع لفترة تخطت الساعة ثم دوت قرقعة تشبه نيران متأسدة تفترس ما أمامها ثم خرج الموت متجسدًا في هيئة بشرية متحللة تترنح متجهة إلى حيث الأضواء في الجهة الأخرى من الجبانة. حيث موطن الأحياء!

***

«تعال هنا يا عزيز» قالتها شابة ترتدي الأسود، صوتها رقيق وجسدها ممشوق ترتدي جلبابًا ظهرت على صدره قطع من العجين الجاف، جلست تنهي خبزها وبجانبها جوال من الدقيق، تنظر إلى فتاها ذو العشرة أعوام وهو يلعب أمام البيت في تلك الساعة المتأخرة.

خائفة عليه، سمعت عن أحداث غريبة شهدتها المحروسة خلال الساعات الماضية، قلبها يدق خوفًا ومعدتها تقرصها

جوعًا، وحين يرتفع صوت الجوع تخمد أصوات الخوف والجُبن. زوجها توفي قبل عامين إثر مرض ألم به ولم يمهمله ليرى عزيز شابًا، وتكفلت هي بابنها ورغم جمالها لم تضعف أمام رغبات الرجال أو تبيع جسدها لمن يدفع. تعمل في حياكة الملابس ظهرًا وليلًا تُدرس لابنها وتعلمه القراءة والكتابة وحفظ القرآن.

ورغم أن بيتهم والمنطقة تطل على باب الوداع إلا أن هذا لم يمنعها من أن تزرع في ابنها حب الحياة، حتى حين يسألها عن ذلك الباب المزخرف بالنقوش والآيات القرآنية ويطل على علي مدينة الموتي (جبانة باب الوزير في مقابر الإمام الشافعي)، تقول له إنه مجرد طريق كأي طريق، يسير فيه المشيعون بموتاهم إلى المثوى الأخير، حيث الراحة الدائمة والمحبة الصافية والحياة الدائمة السعيدة.

شعرت بنسيم هواء بارد لاطف جسدها فارتعشت، نظرت حولها بخوف. الشارع ساكن، ضوء القناديل يبعث ضوء خافت، رائحة التوابل تتصاعد من الدكان بجانب منزلها، ولكن هناك رائحة أخرى تمتزج بها. رائحة خوف.

لم تتخيل أن للخوف رائحة ولكنها تعرف أن لكل شئ رائحة. حين مات زوجها شمت رائحة الموت، حين دخل العسس المكان قبل عامين وحدثت مشاجرة بينهم وبين

أحد الأهالي شمت رائحة الدم وهي في منزلها وحين خرجت وجدت الدماء تغرق المكان. الآن تشم رائحة الخوف تنسال من فتحات البيوت، تتسلل رغم النوافذ الموصدة.

«عزيز» نادت على ولدها ثانية فلم يرد. مدت عنقها لترى من الباب المفتوح زاوية أكبر فلم تفلح في رؤيته. «عزيييز، تعالى هنا» صرخت بها وهي تنهض وتمسح يدها في الجلباب.

خرجت واستقبلتها ريح باردة قشعرت جسدها أكثر، لا ترى ابنها، في نهاية الحارة هناك ضباب يقترب، يتحرك بلزوجة وعناد يغطي البيوت.

لم ترى ضبابًا من قبل، تسمع عنه، تعرف أنه يحدث حين تقترب كارثة، جدتها كانت تقول إن الضباب يضم داخله الموت ولا يجب على الأحياء الاقتراب منها. تذكرت قول الجدة فأجفلت، صرخت. «عزيييييييز».

طال الصمت، سمعت صوت بعض النوافذ تُفتح، عيون تنظر بفضول. خرج جارهم الثلاثيني أبو عوف من بيته، نظر إليها بتساؤل وهو يعدل جلبابه الرمادي. تمتمت بصوت مرتجف، خائف: «عزيز».

فهم الرجل، نظر إلى الضباب وضم كوفية من الصوف حول

رقبته وتحرك لنهاية الشارع، خرج بعض الأهالي ينظرون بفضول. «ضباب» «كيف» «ما هذا» «من أين جاء»؟! كلمات التقطاتها أذني أم عزيز فلم تهتم إلا بفلذة كبدها. الجميع متعجب، لكنها في واد غير واديهم، وادي الخوف من الفقد.

اقتربت أكثر، خطواتها مترددة، ضمت يديها حول كتفها تقيها برودة مفاجئة، تنفست وشاهدت أنفاسها تخرج بخارية من فمها الدقيق، زادت في خطواتها حتى وصلت إلى نهاية الشارع، وقفت أمام الضباب، يعلو، يتكاثف، سمعت أصوات قادمة من داخله تنادي، تتحدث، لم تفهم، وقف البعض بجانبها بذهول.

«أمي» سمعت الجملة فدق قلبها بسرعة. صوت عزيز يأتي من الداخل.

«أين أنت يا أمي»؟! ضرب السؤال عقلها فتشتت. اقتربت بخطوات خائفة حتى وصلت إلى حد الضباب. «عزيز» بصوت متردد قالتها وهي تمد يدها أمامها، مست أصابعها الضباب، بارد، لزج، شعرت برعشة في جسدها، ضربتها صاعقة ذكريات كئيبة لا تدري من أين أتت! تسمرت أقدامها.

تذكرت عمها الذي كان يعتدي عليها بالضرب إن تأخرت، تذكرت الشيخ حمدان الذي مات في بيتهم وشاهدت وجهه الأبيض ولم تستطيع نسيان ملامحه، ظنت حينها أنه وجه

الموت!

استرجع ذهنها زوجها وملامح المرض، هزاله، نحافته، سعاله الجاف والدم الذي كان يبصقه، تذكرت مشهد الدماء التي كانت تغطي الشارع في مشاجرة العسس، تذكرت الوجه الغارق لفتاة وجدوها في بركة مياه قبل أعوام ووجهها مخضر، كان يقال إنها تزوجت من جنيًا وحين حبلت منه قتلها غرقًا!

تذكرت حريق النخل في مزرعة جارهم وكيف كان يقول إن الجن هم من أحرقوها. ضرب سيل من الذكريات رأسها فجأة، شعرت بخنقة، تكالبت عليها أفكار السوء وأسقطت حصون التعقل فيها.

«أمي» سمعت عزيز يقولها بخوف من داخل الضباب، تذكرت بكاءها حين حاول سيد العطار لمس ثديها وهو يضع المكيال وحين نهرته صفعها وطردها من العمل.

«أمي» تشنجت أطرافها، أثقلها الهم فجأة، انفصلت عن العالم بكل مآسي الماضي، الجن حرق النخل، الفتاة الغارقة، وجه الشيخ الميت، سعال ودم. أمسكت رأسها تمنعها من المزيد من الأفكار، ضغطت عليها بقوة، صرخت، ركعت على الأرض، سقطت داخل الضباب واقتحم جسدها برد لم تشعر به قبلًا.

رفعت رأسها بضعف ووهن، الضباب يحاصرها، هناك أقدام صغيرة أمامها. عزيز! جسده النحيل، رأسه الدقيق، قدميه الحافيتين. رفعت رأسها أكثر وابتسمت، قابلها وجهه بإبتسامة، لا ليس هو! وجهه ممسوحًا تمامًا! بدون ملامح! بدون أعين!

صرخت، تراجعت إلى الخلف، اقترب منها شبيه ابنها الممسوخ ونزل على قدميه وقال برقة: «تعالي معي يا أمي، سنعوضك».

لمحت من خلفه أجساد بشرية تترنح، رائحة الموت تزكم أنفها، جسدها يزيد في الانتفاض، الأرض تميد بها وجسدها يترنح بين واقع تعيشه وخيال ما تراه، شعرت بلمسة الابن، باردة.

صرخت بوهن، حلقها جاف، تراجعت إلى الخلف بصعوبة. «اتركني» قالتها باستنجاد، ضعف، أغلقت عينيها وزادت «اتركني» وأخذت تكررها حتى شعرت بيد تمسك بكتفها وتسحبها إلى الخارج.

لم تشعر بنفسها، الضباب أمامها عال، الأهالي يقفون بخوف ورهبة، شخص يرتدي الأسود هو من أخرجها من الضباب، لم تقو على الكلام.

«عزيز» تمتمت بها باكية، تساقطت دموع قهر وضعف من مقلتيها. «أمي» سمعتها وحين التفتت إلى الوراء وجدت أحد الرجال يحمل ابنها.

مسحت دموعها بسرعة ونهضت بقوة لا تدري من أين جاءت، احتضنته، بكت، نظرت إلى الضباب ثم إلى منقذها وقالت بخوف: «إن كان هذا ابني فمن الذي كان في الداخل وكيف يتخذ هيئته»؟!

نظر لها الرجل ولم يعلق، صرخ في الموجودين «تراجعوا إلى الخلف، لا يقترب أحد منكم من الضباب، الضباب ملعون». وأمر عدة رجال يعملون تحت إمرته بدفع الناس إلى الخلف ووضع التحصينات وصنع خط النار بالقطران والزيوت التي أحضرها معه، ليتصاعد صوت الرجال بالطاعة: «أمر القائد شمس الدين».

***

مقبـــــــــرة المقطـــــــم

تصاعد صوت الشهيق والزفير من شمس الدين وهو يصعد الصخور في جبل المقطم، جال ببصره بحثًا عن علامة محددة.

قابل على سفح المقطم وعلى مقربة من مسجد ابن عطاء الله السكندري، ساحة صغيرة تتكدس أمام أبوابها مجموعة من الأخشاب وقطع الحديد المتراصة كأن المكان لا يشير الى وجود شيء مهم بداخله، وقرأ كلمات على لوح خشبي تقول إنها خلوة السيدة نفيسة، حولها بعض المقابر وأمامها مقاعد متراصة فى ساحة صغيرة تمثل استراحة للزائرين للخلوة، قرأ الفاتحة واستكمل المسير.

ابتسم، شعر براحة نفسية كبيرة، قبل قليل وأثناء مروره للوصول إلى المكان قابل مسجد عمرو بن العاص، وكان على يمين بابه قبر صغير لابن العاص أحد صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم وفاتح مصر، سمع سابقًا أن عمرو بن العاص أوصى قبل وفاته أن يُدفن داخل قبر لا يوضع له شاهد كما كانوا يدفنون الموتى في بقيع أرض السعودية في أوقات الحج ولهذا دُفن بدون شاهد.

جلس شمس واستراح، أعاد قراءة الفاتحة ثم حاول أن

يرتب تفكيره.

حين قال له الشيخ عرابي رحمه الله «أرض الجنة» لم يجد إجابة تسد رمقه ولكن بعد خروج الضباب قادمًا من المقابر أتته الإجابة، مقابر المقطم، يقولون إن المقطم قطعة من الجنة، له قدسية لا ينكرها أحد، دُفن فيه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريب من الخانقاه على مسيرة أقل من ساعة. بالتأكيد موضع مثالي لدفن الشيخ يعقوب. فقط عليه النزول وإيجاد موضع القبر لمعرفة سر ما يخفيه.

نزل ببطء وحرص كي لا تزل قدميه من الصخور حتى وصل إلى الأرض المستوية للمقابر، أمامه عشرات الشواهد وبعض القباب التي حرص على بنائها أولياء الله الصالحين لتكون مقرأة للقرآن لتخفيف العذاب عن الموتى أصحاب الأرض.

رائحة دخان خفيف امتزجت بالهواء البارد، ندى الشروق يلامس أوراق الشجر التي ظللت المكان، الأرض طينية خاضها شمس الدين وعينيه تدور في المكان بحثًا عن علامة تقوده، حفيف الأشجار حوله يعطيه طمأنة هدأت روعه بعد ما خاضه.

لم يجد أي علامة تشير إلى قبر يعقوب، فقط عشرات القبور التي تدل على هوية أصحابها، غنيهم وفقيرهم في

تراب واحد، جلس على جذع شجرة انحنى ميتًا بعد أن كُسر قبل زمن وحاول أن يفكر في طريقة للوصول إلى مراده.

حين شاهد الرؤية كان القبر وحيدًا، أي أنه ليس هنا، ولكن أين؟ تسلق شجرة كافور عالية ووصل إلى ارتفاع عدة أمتار وأمسك بجذع منها وتدلى يمينًا ويسارًا ينظر، وجد على اليمين صخور تقود إلى الأسفل، بالطبع إلى الجهة الأخرى من المقطم، ويسارًا كانت درجات منحوتة في صخور الجبل تصعد إلى الأعلى ويخفيها شجر عظيم الأوراق كثيف التواجد.

شعر أن القبر المختار جهة اليسار، مكان مثالي لا يراه إلا من يبحث عن شئ بعينه. نزل بسرعة وزادت خطواته متجهًا إلى الجهة التي شاهدها، صعد الدرجات ببطء ووجد أمامه صف من الأشجار والنباتات المتسلقة أزاحها بكف يده وخاض فيها حتى تعداها ووصل إلى مكان واسع بعض الشئ، من الجانب هاوية المقطم والجهة الأخرى صخور عالية تقود إلى أعلى الجبل، أما في المنتصف فعدة أشجار ومكان واسع في المنتصف جرداء أرضه تدل على أنه لم يُزرع فيه شيء.

ابتسم بثقة وتنهد في راحة. هُنا قبر يعقوب.

***

تسلل الضوء من فتحات الشباك ولامس وجه زينب ليعكس دموع لم تجف حزنًا على فراق والدها، مات السند الذي لم تتوقع موته ولم تتخيل رحيله، لو كانت تعلم أن الفراق صعبًا لما تركته يرحل وحيدًا، ولولا أن قتل النفس ذنبًا لأزهقت روحها لتكون معه. تشعر أن بموته رحل العالم الذي تعرفه وانكسرت تميمة القوة التي تعطيها صلادة مواجهة قسوة الحياة ومُرها.

«أه يا أبي» قالتها بحرقة وزادت دموعها في النزول عسى أن تريح قلبًا طُعن بفراق لن يضمده زمن.

مات قبل يوم ولكنها تشعر أن ألمها يساوي قرنًا، فور أن رحل شمس الدين مع الجند واختبأ الأهالي في البيوت خوفًا من ليل الخانقاه الملعون واجهت وحدها ألم الوحدة ولوعة الفراق.

أُغلق عليها الباب وشاهدت في كل رُكن ذكريات لوالدها. هنا كان يبتسم، هنا كان يفكر، هنا يرتدي ملابسه وهنا طلب منها أن تخفف يدها في التوابل ليصبح طعم الأكل واضحًا.

تبتسمت مع الذكرى ومسحت دموعها بيدها ورجعت بظهرها على السرير ناظرة إلى السقف، غثة في حلقها تزيد ألمها، تذكرها أن الماضي لن يعود.

سمعت طرقًا على الباب أخرجها من التفكير. نهضت بتثاقل تفكر في التجاهل ولكن فضولها غلبها، فتحت ووجدت أمامها سمية، جارتها الجميلة الشابة، ابنة أشرف الأسدي صديق والدها.

نظرت لها سمية بألم وشفقة، قدمت لها العزاء واحضتنتها، أمسكت يدها وطلبت منها أن تتماسك لأن والدها في قبره سيؤلمه أن أذت نفسها وأوقفت حياتها حزنًا.

الكل يجيدون طلاقة الحديث وحسن اللسان طالما المصيبة ليست مصيبتهم. هكذا فكرت زينب. هزت رأسها لسمية وابتسمت إبتسامة بسيطة وهمت أن تدخل البيت ولكن الشابة استوقفتها بإحراج.

«لن نبقى هنا يا زينب». قالتها بهدوء وصوت منخفض محرج. أكملت وهي تنظر خلفها للخانقاه: «ليل الخانقاه ملعون، ظللنا هنا لسنوات وسنوات وأجيال تُسلم أجيال للحفاظ على المكان ومنع خروج الشرور لأهل المحروسة ولكن انكسر الحصن وخرج الشر ولم يعد لنا دورًا».

تعجبت زينب: «ووصية القدماء والأجداد»؟ أجابت سمية بسرعة: «الوصية تنطبق إن كانت على أساس سليم، إن كانت الخانقاه مغلقة على ما فيها ومن فيها، أما الآن فهي كما كل أرض الله، ولكن الفارق بينها وبين بقية الأرض أنها صحراء

جرداء، وبدلًا من أن نعيش فيها علينا الخروج وبدء حياة جديدة عسى أن ننجح في ذلك ونعوض ما مر وفات.

أمسكت سمية يد زينب وأكملت: «وأنت عليك فعل ذلك، لم يرض والدك أن ظللتي هنا وحدك».

لم ترد زينب، عقلها توقف، صدمات ما حدث تدق فوق رأسها بدون رحمة. أين تذهب؟! لمن تلجأ!

رسالـــــــة يعقـــــوب

نعق غراب وطار من أعلى الشجرة متجهًا إلى جهة يسودها هدوء ويجد فيها غذاء، ثم توقف فوق غصن أخضر ينظر بغرابة إلى ذلك البشري الذي ركع على ركبتيه يحفر في الأرض ويرمي الطين على جانبي حفرة تقود إلى أسفل.

مسح شمس الدين عرقه وزاد في الحفر، يريد الإنتهاء ووضع الحد للعنة حلت على البلد، أهلها الطيبون لا يتحملون مزيد من القهر، يكفيهم فساد الحكام وطغيان السلطة وجعش التجار وارتفاع الضرائب.

يحفر منذ أكثر من ربع ساعة، احمرت يديه واسودت أظافره وجُرح معصمه ولم يجد أي دليل، شعر بشيء يمنعه عن المزيد من الحفر فتوقف.

أزاح طين جاف من على جانبي تابوت خشبي بدأت تظهر معالمه، ثم مد يده أسفل التابوت ورفع طرفه.

مصنوع من الزان الأحمر، مهيب الهيئة، عليه رموز ورسومات غريبة، مزيج من الشموس والطيور والأقمار، وصل إلى هدفه، جلس أمام التابوت وحاول تهدئة أنفاسه المتسارعة وبعد دقائق عاد إلى محاولة إخراجه.

لم تمر دقائق حتى أخرج التابوت وبدأ يجذب طرفه إلى

أعلى الحفرة، نظر حوله وتأكد أنه وحيد، لا يوجد سوى غراب يتلصص وزقزقة عصافير تهدئ روعه قادمة من جهة المقابر الأخرى.

اتم استخراج التابوت وبدأ محاولة فتحه، رفع قسمه العلوي ونظر إلى داخله ووجد أمامه عظام متحللة لجثة كانت بشرًا فيما مضى وجرى عليها زمن بعيد، عظام بيضاء وتحتها أوراق صفراء مهترئة وقلادة بها فص أحمر دموي تحيط بها رموز فضية محفورة تشبه بعض الشيء القلادة التي وجدها حين شاهد الرؤية واستيقظ وكانت في يده!

مد يده واستخرج بحرص الأوراق والقلادة، نظر في الورق بتمعن، فيها رموز ورسومات وورقة وحيدة مكتوبة بالعربية بخط حسن منمق كما الذي شاهده في مقام الشيخ يعقوب بالخانقاه.

«لمن يجد رسالتي، أما بعد.. أنا يعقوب بن خرقاش بن بهروش، حامل ضياء النور، ابن العظم البار، مهيب الروح، الذي هرب عن عالمه وحل في أرض الأبرار، الذي أقسم على حمايتهم من بطش الأقدمين وساء مصيره حين فتح بوجوده منفذًا للشرور.

أقدم نفسي، لا غرورًا، لكن علمًا بما يجب أن يُقال، منفعة لمن اخترته لاستكمال المسير، حصنًا بالشفق ذو اللونين

وعملًا بما كان يجب أن يُعمل قبل سنين.

أنا ابن العظم البار، القادم من خلف ستار الرؤية، ساكن الأرض الرابعة، قد وصلت إلى أرض الأبرار هربًا من بطشهم، وبدخولي شُق حصن الحماية وخرجت أيدي الظلال تقتنص ما يقترب منها لتزيد سطوتها وبطشها، تحكم بالخوف وتسود بخبايا البشر وشرورهم.

حين جاءوا ساد الظلم موطني، توغل حتى لم يعد هناك بياض في القلوب، ترسخ الخوف وزكمت الأنوف برائحة الموت، غذائهم سواد النفوس، شرابهم صراخ الحناجر، عسلهم مُر الفراق، قسمهم ألا يوجد في الأراضي السبع موطنًا إلا هم فيه أسياد، حينها لم أجد بدًا من هروب مضطر ومكوث في الأرض قبل سنين لا تُحصى، ورحيل مستمر لسد شقوق تُفتح غصبًا، وثغرات تزيد بجهل الأرضيين.

أحصيت سبعًا، وسددت أربعة بقوة أخذت من روحي ما لا يمكن إرجاعه، وهنت وخارت قوتي حين تكفلت بهم وحدي، أما الثلاثة فلا مناص من وجودهم، اثنان ضعاف يقدم لهم البشر قرابين لكف الأذى أصحابها مردة، أما الباقية فلا قوة تقدر على سدها إلا بوحدة صف لم تعد موجودة، وطقوس أصبحت منسية طال في رحالي البحث عنها ولم أجدها.

ارتحلت إلى صحراء منسية للعيش بجوارها عسى أن

أحمي أرض الأبرار منها، صنعت لنفسي تاريخًا يقال فيه يعقوب وهو اسم اخترته لنفسي لرسول مُرسل أحببت سيرته، عشت سنين أبحث عن حل يريح تعبي فلم أجد، حتى وصل إلى موضعي بشر طلبوا المكوث فلم أرفض، مات بعضهم وسقط دمهم في شق يقود إلى الظلال، دم منح الشر طاقة يحتاجها للخروج. كُنت قد ظننت أني تكفلت بحصارالشر، لكنه عاد فلم أجد أمامي إلا حجب المكان عن عيون الآخرين، وتوصية الأقربين بعدم الخروج من المكان إلى حين.

باسمي، يعقوب، أدعو قارئ الصحيفة أن يستمر، لا أعلم من هو ولكن لا يصل إلى وصيتي إلا نقي القلب والسيرة، خفيف الروح والمسيرة، طاهر النفس القادر على منع وصول الظلال إلى أرض الأبرار.

انتهت الرسالة، تصاعدت أنفاس شمس بعد أن قرأ، شعر بجفاف في ريقه من أثر ما عرف، خوف يعتريه، كأن العالم قد توقف حوله يترقب ما سيفعل، أي ظلال تلك التي تحكم الأراضي وتريد الوصول إلى البشر للسيطرة عليهم!

شاهد الضباب وشاهد الكلاب والموتى والركض والخوف الذي يحدث، هل هذا ما يقصده الشيخ يعقوب؟ يعقوب الذي لم يكن بشريًا وقادم من أرض أخرى غير أرضنا، الذي صنع

تاريخًا مزورًا لنفسه ليمكنه الحركة والترحال في المحروسة لسد الشقوق التي تقود الشرور لعالم البشر!

تلك الشرور تعتمد على الخوف فقط، تبث الرعب في النفوس فيسقط البشر في شراكها، لكن لا يوجد بشر بلا خوف، الخوف يجري في الدم، يقطر مع العرق، يخرج مع الأنفاس، الخوف ترسخ في نفوس البشر قبل ملايين السنين وغريزة لا تُمحى ولا يتحكم فيها إنس.

أمسك القلادة التي وجدها في التابوت وأخرج القلادة الأخرى من جيب بنطاله ووضع الاثنين أمام بعضهما البعض، تتشابهان في تفاصيل عديدة، واحدة بخيط والآخرى لا، واحدة بنتوء بارز على اليمين والأخرى مجوفة. فكر في شئ ما ووضع القلادة الجديدة على القديمة ووجد أنهما متماثلتان في الحجم، دفعهما بقوة في إتجاه بعضهما البعض فثبتا في هيئة واحدة!

تحولت القلادة إلى واحدة، الفص الأحمر أصبح على الجهتين وبدأ ينير بعض الشيء!

ارتدى القلادة وتذكر ما قاله الميت في مقام يعقوب «قبر، ضخور، الطبقة الثالثة» لديه شعور أن الصخور التي يراها أسفل التابوت بها سر جديد، مد يده وبدأ يرفعها ويلقيها جانبًا، زاد في حركته حتى شعر أنه رفع أطنانًا وألمته يديه

ومفاصله. ارتاح قليلًا وشعر بحرارة الشمس تلحف جسده، عاد إلى عمله ورفع المزيد من الصخور حتى وجد أمامه ما يبدو أنه غطاء معدني أسود بمقبض. أمسك المقبض ورفعه بعض الشيء. كان ثقيلًا للغاية، تحامل على نفسه وبدأ يرفع أكثر، آلمه ظهره ولكنه استمر، ثم توقف فجأة حين نظر إلى الأسفل ووجد عيون حمراء تنظر إليه أسفل الغطاء.

صرخ وترك الغطاء يسقط بثقله ولكن يد مشعرة امتدت ومنعت إغلاقه. سمع شمس فحيحًا قادمًا من الأسفل. شاهد دخانًا أسود كثيف يخرج ويتلوى مثل الثعبان. ضربت رياح عاتية المكان وشعر بالأشجار تكاد أن تسقط حوله ثم تشكلت الهيئة الدخانية على هيئة غير واضحة المعالم لمخلوق أسود بعينين حمرواتين وصدر عريض وفاه واسع.

قبل أن يستوعب شمس ما حدث شعر بلطمة في عقله ودوار في رأسه وكاد أن يسقط أرضًا لولا أنه تماسك، وسمع صوتًا يخاطبه دماغه مباشرة: «بأمر يعقوب أحمي من حررني».

***

الخروج العظـــــــيم

اهتزت الأرض فجأة، تدافعت الرمال وتساقط الطين كبركان يفور من أرض الخانقاه. فُتحت الأرض وانشقت تلفظ ما فيها من صخور متنوعة أحجامها، ترددت صرخة عالية في المكان هي مزيج من صرخة بشرية وأخرى حيوانية.

ظهرت يد ضخمة تمسك بحافة الحفرة وتشبثت بقوة وبعدها ظهر جسد بشري ضخم رأسه صلعاء عليها طلاسم غريبة وعينيه مشقوقتين بالطول. فور أن خرج أطلق صرخة أخرى سمعها الجميع على بعد كيلو مترات واقشعرت أبدانهم إثرها.

وقف ثابتًا كسندان لا يتزحزح يتساقط الرمل والطين من جسده العاري وصدره العريض، أخذ نفسًا عميقًا ثم صرخ ونظر خلفه إلى الحفرة الضخمة: «امرحوا واسعدوا، اليوم يومكم».

فور أن أنهي جملته ظهرت ظلال عديدة وحيوانات شبيهة بالكلاب ركضت حوله وتحولت بعضها إلى ظلال سوداء كثيفة سرعان ما طارت في الهواء وسط نظراته الفخورة.

نظر حوله متفحصًا المكان ووجد البيوت أمامه متراصة هادية لا بشر فيها ولا حياة، تشمم الهواء وبدا مثل ضبع

مفترس.

كور قبضتيه وضمهما إلى صدره وأطلق ضحكة عالية حين تذكر أنه حُبس لمئات السنين في ذلك البئر منذ أن سقط فيه وسلم روحه للظلال.

ترددت صدى ضحكاته المنتصرة في المكان ثم أشار إلى الخانقاه وأمر أتباعه «دمروها». زادت الزمجرات حوله فرحة بالأمر، ووقف عاقدًا ذراعيه ينظر بانتصار إلى معركة انتظرها لسنوات وحان أوانها.

***

بلسان متعلثم، وقلب يخفق وأنفاس متسارعة نطق شمس وجسده يتراجع إلى الخلف بشكل لا إرادي: «من أنت».

نظر إلى المخلوق الذي تشكل أمامه، جسد ضخم يتعدى طوله المترين، لديه قطعة من العظم بارزة بجانب رأسه منحته منظرًا مشوهًا، قدماه بهما مخالب وأظافر طويلة ملتفة سوداء اللون، ركبتاه عليهما جرح عرضي قديم محفور في جسده، أما ذراعيه فكانتا مليئتان بالعضلات ومن كوعيه يخرج عظم ملتف كما الخنجر!

«حارس الخناقاة، استدعاني يعقوب بأمر الله لأحمي ناسها، وحين مات حُبست في قبره إلى أن يحررني من

اختاره».

صوت المخلوق جاف، عميق، له نبرة شبيهة برنين الجرس. رد شمس بسرعة رغم الخوف بداخله: «أي حارس، وهل أنت من الجن»؟!

أجاب المخلوق: «لست من الجن، بل مخلوق من الأرض الخامسة، أرض الغيلان والمردة، مُحارب منذ أن وُلدت، حرست شق الخانقاه لسنين، بنيت بسحري مقام مولاي يعقوب، ولا أظهر إلا بانهياره».

نظر شمس باستغراب وقال: «أي انهيار! انهيار ماذا»؟! رد المسخ: «انهيار مقام يعقوب، وانفتاح شق الخناقاة»!

حينها وقع قلب شمس في قدميه وتصاعدت دقات قلبه. انهارت الخانقاه وخرج الشر.

احتل وجه زينب عقله.. تُرى هل مازالت هناك!

***

تلوى ثعبان أسود طويل، التف حول صخرة شامخة وسط الرمال، زحف متجهًا إلى جسد راقد يخفي وجهه بغطاء قماشي رمادي من الشمس. اقترب فرحًا بفريسة ستكون من نصيبه أن انقض سريعًا ودفع أنيابه في الجسد اللين، زاد في

زحفه، أخرج لسانه المشقوق يتلاعب فرحًا، مد رأسه للأعلى استعدادًا للانقضاض لا فكاك منه وانطلاق سم يسري يشل البدن، وقبل أن ينفذ خطته ارتجت الأرض وانتفض الجسد ونهضت فتاة جميلة على وجهها أثر البكاء والإرهاق.

نظرت إليه وتحولت عيونها إلى شراسة وهي تمسك عصا بجانبها وتدفعها نحوه وتصيب رأسه الصغير، تراجع إلى الخلف مصدرًا فحيحًا وزحف بعيدًا بعد أن خسر معركته.

ظلت زينب تنظر إلى الثعبان الهارب حتى اطمأنت لابتعاده ثم نهضت وأمسكت قفة بها ملابسها حملتها فوق ظهرها المنحني من التعب واستكملت مسيرتها للخروج من الصحراء.

سمعت وتسمع أصوات مخيفة قادمة من خلفها، من الخانقاه التي تركتها ورحلت بعد أن خلت من البشر والحياة، لا تعلم مصدر الأصوات ولكنها تتوقع أن تكون شرور الأرض قد خرجت، وما أكد لها ذلك مشاهدتها لدخان أسود ثقيل يطير فوقها كل حين، تشعر بقرب نهاية عالمها الذي تعرفه، ولكنها لا تدري كيف تمنع ذلك أو ما تفعل بعد أن مات أبوها وتم القبض على شمس الدين.

على سيرة الأخير فرت دمعة جديدة من عيناها، مسحتها بقوة واستكملت طريقها ومن داخلها شعور بأنها ستراه قريبًا.

***

تصاعد آذان العشاء من مساجد المنطقة، الشوارع خاوية، أتم المؤذن النداء وختم «صلوا في رحالكم». لم يسمعوا تلك العبارة حتى حين حل الوباء على أرض المحروسة قبل سنتين، الصلاة نجدة لهم من كل شر فكيف يصلون في بيوتهم؟ كيف يُحرمون من ثواب الجماعة وانتظام الصفوف ولقاء بعد العشاء وجلسات السمر!

«أين تذهب يا إدريس»؟ قالتها سيدة خمسينية بخوف متردد لزوجها الطاعن في السن. أمسك عكازه وطرق به على الأرض وعدل عمته وقال بحدة: «الصلاة يا امرأة، لم أفوت صلاة جماعة منذ ٣٠ عامًا فكيف أصليها في البيت بعد هذا العمر»؟

سكتت المرأة، تعلم أن زوجها عنيد، عمله في التجارة جعل قلبه لا يؤمن إلا بأن الصلاة هي عماد حياته ورزقه وإن فاتته جماعة حلت الخسارة وضاع البيع والمكسب. هذه نظرته، تفكيره، وهي ليست مستعدة لمواجهة غضبه في تلك النقطة بالذات.

تتخوف مما يحدث في الخارج، تسمع كل ساعة أصوات صراخ، ترى في السماء نقاط سوداء تطير كما الشياطين،

ينتابها شعور أن القيامة ستقوم، والساعة على حين غرة ستقع.

دفنت مخاوفها في جوفها ودخلت غرفتها وتركت إدريس يفتح الباب ويخرج إلى الشارع المظلم إلا من مشاعل بدت وكأنها لا تقدر على ممارسة مهام إنارة المكان. الظلام أكثر سطوة على النور، يكبت الأضواء الخارجة من النار. شعور متضطرب داخل إدريس، خطواته ثابتة ولكن قلبه يرتجف، لا أحد في الشارع، حتى جاره مصطفى النجار لم يلبِ نداء الصلاة.

ردد «مدد يا سيدنا الحسين» طلب المدد من آل بيت رسول الله ثم بصق بجانبه وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

لمح ظلال سوداء تتلاعب على جدارن البيوت، تتراقص، ضاقت عيناه ليتمعن فيما يرى، اقترب بفضول ومد عكازه ومس به البيوت، شعر بأن الخشب يمر في شئ طري كما الطين!

ضربته رعشة، قشعريرة، سمع صوت حفيف خلفه كشيء يطير ويمس الأرض، استدار وتجاعيد وجهه ترتعش، عينيه دامعتان، لسانه يردد الذكر بدون توقف، لم يجد أي شئ في الشارع!

«م.. من هناك» خرجت نبرته مرتعشة وهو يسأل. الإجابة كانت حفيفًا أكثر قوة يقترب منه.

تراجع بظهره إلى الحائط وارتعشت شفتاه، لولا كبر السن واحترام الهيبة لصرخ للنجدة، ولولا المرض لركض هربًا وعاد إلى بيته.

لمح أشياء سوداء تتواثب على الطوب المرصوف في الشارع، استدار وحاول الهرب في الناحية الأخرى لكنه شاهد نفس الشيء الأسود يقترب منه. مُحاصر.

«ياحُسين» تمتم بها في استنجاد وعينيه تنظر إلى مئذنة الجامع البعيدة.

الصوت يزيد، بدأت تظهر ملامح ما يحاصره، آلاف العقارب الصغيرة!

فتح فاه وشهق، تسارعت أنفاسه، العقارب تتقافز فوق بعضها البعض، الحفيف يزيد ويصم أذنيته. لا يعلم كيف لم يسمعه الأهالي ولم يخرج أحد أو ينجدوه!

شعر بضربات قلب تكاد أن تخلع صدره، سقط العكاز من يده ودوى صوته على الأرض حين ارتطم بحجارتها المرصوفة، وضع يده على صدره وشعر بدقات سريعة، غمره

عرق بارد.

العقارب تقترب أكثر حتى أحس بها في جلبابه، نفض بيده وهو يدور حول نفسه بجنون، تعالى صراخه، على صوته طلبًا للنجدة، شعر بإبر تنغرس في لحمه، سقط على الأرض يدور حول نفسه كالممسوس، سمع أصوت أبواب تُفتح، يشعر بالعقارب تزحف داخل جسده، على جلده، الألم يزيد، ضربات قلبه تتسارع، تشنج جسده، أطلق صرخة رعب هائلة.

اقتربت الأقدام منه وأصوات تقول «مالك يا عم إدريس». أراد أن ينظر إلى من يحدثه ولكن ألمه منعه، شهق شهقات متتالية ووضع يده على قلبه وأطلق شهقة أخيرة مستغيثة ثم همد جسده على الأرض وسط نظرات الأهالي المذعورين الذين خرجوا من البيوت على صوت صراخه، متعجبين من سبب موته المفاجئ وصراخه رغم أنه كان وحيدًا في الشارع!

***

«الخوف يتجسد أمامهم، الخوف هو ما يقتلهم». رددها شمس الدين وهو يضع يديه خلف ظهره ويسير مجيئًا وذهابًا أمام حارس الخانقاه بعد أن استمع للأهالي عما حدث لإدريس.

أجابه حارس الخانقاه: «الخوف دمر أراضي عديدة غيركم، الخوف سلاحه للسيطرة».

نظر إليه شمس وقال وهو منغمس في التفكير:

-الخوف هو أكبر غريزة لا يمكن أن نتحكم فيها، لا يمكن جمحها، وإن اختفت ساد الهرج والمرج في الأرض.

وتابع مفكرًا: إن اختفى الخوف؛ لم يجد الإنسان ما يمنعه من شئ، الخوف من النار يمنعنا من الاقتراب منها، الخوف من الغرق يجعلنا لا نسبح إن لم نُجيد العوم، الخوف من العقوبة يمنع الجريمة، الخوف من الألم يجعلنا نختار الطريق الأسلم.

رد المخلوق بجمود:

-الخوف هو غذاء الشيطان، وسيلته للسيطرة، إن زاد عن الحد حاصر النفس ومنعها من كل شيء.

نظر إليه شمس وسأله:

-لماذا اختارني الشيخ يعقوب لاستكمل مسيرته.

ابتسم المخلوق وبانت أسنانه البيضاء الحادة واكتفى بالرد:

-امتزج دمك بدم مخلوقات الجحيم، ثم ظهرت لك في منفذ خروجي بعد أن دخلته أول مرة، وجهت طاقتي لأدلك

على الطريق إلى هنا.

بهت وجه شمس، تذكر الرجل المنحور في القاعة الثانية التي دخلها حين خاض رحلته في الخانقاه، ثم معركته مع الكلاب والجرح ونزول دمهم في جسده.

ردد بصدمة:

-أي أنه لولا ما حدث من امتزاج دمي بدمهم لما اختارني يعقوب من بعده؟!

رد حارس الخانقاه باقتضاب:

-نعم، امتزج دمك بدمهم، ومن قبلها كنت مختارًا للضحية بك، ومن اختاره القدر عليه استكمال الطريق رغمًا عنه.

تعجب شمس: «وكيف تعلم كل ذلك»؟

أجاب المخلوق:

-دوري هو حراسة الشق، منع خروج الشرور منه، ولكن قوة الشر تزيد ليلًا ولهذا كانوا يخرجون مساءً يعيثون في الخانقاه فسادًا، ولهذا أيضًا طلبت وضع أرقام ولوحات وحفر أمام البيوت.

تذكر شمس المشهد في الخانقاه وردد: «نعم شاهدتها».

استكمل حارس الخانقاه:

-الحفر هي مقابر لموتى الخانقاه ومفتوحة لأن الشرور تجذبها رائحة الموت فتتوقف عند الحفر ولا تتخطاها لبيوت الأحياء، أما الأرقام فهي طلاسم ترتبط بأسماء الأهالي تحميهم من سيطرة الخوف عليهم، تزيد قدراتهم الروحية لمواجهة هذا الرعب.

أشار شمس بأصبعه إلى المخلوق وقال بانتصار: «أي أنك وجدت وسيلة لمنع وصول الشرور إلى الناس»؟!

وأكمل: «إذن علينا أن نمنع تجوال الناس ليلًا ونأمر بوضع لوحات عليها أسمائهم وأرقام ترتبط بهم لمنع سيطرة الخوف والشرور عليهم».

سكت شمس لثواني يفكر في طرحه ثم خرج من الغرفة بسرعة ومن خلفه المخلوق الذي لا يراه غيره وقال للحارس بلهجة آمرة: «أطلب من جميع تجار المنطقة والعسس والبصاصين الحضور حالًا».

عاد إلى غرفته ونظر إلى حارس الخانقاه بانتصار: «سأجعل من المحروسة خانقاه كبيرة».

***

تراصت فروع الشجر، دوى صوت تقطيع الخشب بمناشير حادة مسنونة، وقف أحد الجند المكلفين يعطي الأوامر للآخرين بسرعة الإنتهاء من صنع لوحات خشبية، ووقف بعض الأهالي ممن لديهم القدرة على الكتابة ينقشون الأسماء على الألواح ويعطونها لأصحابها لوضعها أمام المنازل.

تحول الدرب السلطاني حتى قلعة الجبل والمناطق المحيطة به إلى ثكنات وحصون، الكل يعمل ويسارع الوقت، أمرهم شمس الدين بذبح الشاه والدواجن والأرانب ودفنها في حفر أمام البيوت، تناقلت أقاويل أن ما يدفعهم إليه شمس ما هو إلا طقس قديم من طقوس الكفار والمجوس الذين يقدمون أضاحيهم للشياطين لكف الشرعنهم، اعترض البعض، تشابكت الأقوال والأيادي دفاعًا وهجومًا ولكن الخوف وما يحدث لهم جعلهم يفعلون ما يؤمرون به رغمًا.

نادى البعض في المساجد أن لا يسلكوا طريق الشيطان، ودعا متصوفون ودراويش على السلطان وشيخ البصاصين الجديد بالموت والهلاك إثر اتمهم، لا يعلمون سوى أنهم يطلبون ما لا يعلمون سببه، والعقل إن لم يستوعب ما يقال أصبح التكفير سهمًا في صدور من اختلفوا معه.

تجاهل شمس كل ذلك، تجاهل نظرات الاستغراب والمقت في وجوه البعض، اكتفى بأنه من داخله يعلم أنه على

صواب، ليستكمل خطته بدون توقف.

السماء معتمة، خبى ضوء القمر واختبأ كأنه لا يقوى على مشاهدة القادم، لم يبق في الشوارع إلا أصوات قطط وكلاب تمرح وحدها بلا ونس بشري رغم أن الظلام تبقى عليه أكثر من ساعة.

في أحد البيوت القريبة جلس شمس ينتظر، سمع حفيف الريح ومشاكستها مع النوافذ المزخرفة والزجاج الملون على البيوت، شاهد من بعيد دخان أسود يطوف في السماء كأنه ملاك الموت ينتظر أمر الحصاد فينزل بقوته يبيد الأرض ومن عليها.

«هل تظن أن خطتك ستنجح يا سيدي»؟ قالها عُمر، أحد الجنود الذين يثق شمس فيهم. شاب بأنف مدبب، جسد نحيل، في عينيه لمحة ذكاء.

لم يرد شمس، نظر بجانبه إلى حارس الخانقاه الذي وقف جامدًا. تعجب عُمر من أن شمس ينظر كثيرًا ويدقق ببصره في جوانب لا يرى فيها شيء، ظن أنه يسرح ولكن حركة عينيه تدل على أنه ينظر ويرى ما لا يراه آخرون.

«محاولة إن فلحت كسبنا الوقت وإن خسرت فلا يضيرنا وقوع معركة محسومة تسبق أوانها». نطق بها شمس الدين

وتحسس سيفه في غمده. السلاح لا يفيد ولكنه يعطيه قوة وجلد للمواجهة، كمن يواجه أسدًا بنبتة!

تعالى صوت آذان المغرب، انقبضت القلوب في الصدور، واختبأت الكلمات في الحناجر، زاد الصمت في البيوت، حتى الأطفال اختبأ بعضهم أسفل الأرائك والأسرة يشعرون بقرب شيء يُخيف الكبار فما بالهم بما سيحدث لهم هم الصغار.

فور انتهاء الآذان سمع الجميع صوت الضربات!

دقات تتعالى من بعيد، صوت زمجرة تصحبها، سمع شمس ركضًا في الخانقاه، فكر. ربما ما حدث في اليومين السابقين كانا تمهيدًا فقط، مجرد إشعار للهول القادم، إشعار للخروج.

نظر جهة الحارس فبادله المخلوق النظرة وضم قبضتيه وشد جسمه وبدا لشمس وكأن جسد الحارس يتمدد، زاد طوله وعرضه، أخذ وضع الدفاع أو ربما الهجوم.

دفع شمس طرف النافذة للأعلى ونظر في الشارع المظلم، رأى الحفر أمام البيوت واللوحات المطلسمة بالأرقام باسم كل أسرة. رفعها أكترومد رأسه ليرى أفضل ولمح من بعيد ظلام يطبق على المكان. بدا مثل الضباب ولكنه أسود، بداخله شرار من نار يظهر في ثواني ويخبت أخرى.

ظاهرة جديدة. طلب من عُمر الخروج من الغرفة

والاطمئنان على الوضع في باقي البيت لمنع تسلل أي شرور فلبى الشاب الأمر، ونظر شمس إلى حارس الخانقاه وسأل بتوتر: «ضباب أسود يشع ويخفت ضوءًا»!

صمت المخلوق لثواني ورد: «لقد خرج».

اقترب منه شمس وسأل مجددًا وضربات قلبه تزيد: «من الذي خرج»؟

أجاب الحارس باقتضاب كعادته: «فاتح الشق الأول».

ومع ظهور الغضب على ملامح شمس الدين، أكمل المخلوق:

-بداية اللعنة كانت جريمة قتل حدثت في بئر يقود إلى شق رفيع يكاد لا يُرى، سقطت جثة فتسللت دمائها عبر الشق وجذبت الشرور، ولأن الشرور ليست قوية بما يكفي لتسيطر على ما حول البئر، استحوذت على جسد هذا الآدمي ووجدت بداخله شرورًا تجعله وسيطًا جيدًا بينها وبين الأرض، دفعت في جسده المزيد من طاقة الظلام ليبثها إلى الأعلى.

حك شمس رأسه: «لا أفهم»!

استكمل حارس الخانقاه:

-الشرور التي نتحدث عنها لا جسد لها، تستحوذ على أجساد رُميت إليها لتنال مسعاها، بشر، حيوانات، طيور، كل ما يدخل نطاقها يكون ملكًا لها لتزيد قوتها.

هتف شمس: «الكلاب»!

أجاب المخلوق: «نعم، كلاب الخانقاه مجرد جند لدى هذه المخلوقات».

تذكر شمس رؤية حادثة البئر، وسأل حارس الخانقاه عنها فأجاب:

-كانت هي البداية، من بعدها بدأت تخرج الشرور من البئر، توغلت في نفوس أهل المكان فعلموا أنهم أصبحوا في لعنة لا فكاك منها ولا مناص، رحلوا عن الأرض لتتحول بورًا بعد أن كانت عامرة خضراء، تركوها ومرت السنين وعلم مكانها شيخي يعقوب ومكث فيها بضع سنين حتى آتاه بشرًا أرادوا العيش معه والتصوف.

وتابع الحارس: في البداية رفض شيخي يعقوب خوفًا عليهم ولكنهم رأوا فيه زاهدًا، طيبًا، يرتدي جلباب أخضر بلون الحياة ويزرع ويقلع ويعمر الرمال بالطين، حينها أطلقوا عليها خانقاه الأخضر، وعاشوا معه إلى أن سقط ضحايا مجددًا وسال الدم في الشق بشكل أكبر من ذي

قبل، حينها لم تقدر قوة يعقوب -التي بدأت تضعف من سد الشقوق- على منع خروج الشر، صنع بقوته وبمساعدتي وسيلة لحجب المكان عن أعين البشر، قرر محاصرة الشر في الخناقاة فقط، وعلم الأهالي الذين قرروا المكوث معه علم الحماية وسرها، علمهم كيف يحمون أنفسهم من الشرور.

اقترب صوت الطرق أكثر في الخارج، ثم سمع صوت صراخ قادم من الجهة الأخرى! صراخ سيدة!

فتح شمس النافذة بسرعة ونظر في الجهة الأخرى ووجد شابة تركض وتطرق الأبواب ليفتح لها ي شخص ولكن الخوف منع الآخرين من مساعدتها، تضع لثامًا على وجهها، جسدها نحيل، من ركضها وخوفها سقط اللثام وبان وجهها، وصرخ شمس. زينب!

***

ملائكـــــــــة وشياطين

لم يدرِ شمس الدين بنفسه إلا وهو يركض إلى خارج البيت، قفز سلالم الطابق الأول في ٣ خطوات كبرى ونزل وفتح الباب الخارجي وأكمل ركضه بتجاه زينب التي ما إن شاهدته حتى ركضت باتجاهه.

ساد الظلام الشارع، أصوات مرعبة قادمة من خلفه، لم يفكر في خوفه بل فيها، اقتربت المسافة بينهما وتقلصت حتى وصلت إليه وارتمت في حضنه باكية، وضع رأسها على صدره والتفت ووجد الظلام قد وصل وأخفى البيت الذي كان فيه.

لا مجال للعودة، يقف في العراء معها.

«ظننتك مُت» قالتها زينب والدموع تنهمر منها، أمسك شمس يديها بقوة، يدها باردة، عظمية، ترتعش من الخوف. «لن أتركك ثانية». تمتم بها وهو يفكر في حل لإنقاذهما قبل وصول الظلام إليهما.

لمح وسط السواد جسد بشري ضخم، عينيه تشعان أحمر، سمع زمجرة وحشية تقترب منه، الكلاب! شاهدها تخرج من الظلام تتشمم الأرض.

لطالما خاف من الكلاب، يخاف من أقاويل أنها تحمي

صاحبها وتحبه. «هل الكلاب وفية»؟ طرح على نفسه هذا السؤال حين كان طفلًا وسمع عن كلب عقر صاحبه. حينها كره الكلاب واحتل الخوف منها جسده.

الخوف. ترددت الكلمة في عقله، الخوف هو ما يحكمه. الكلاب مخلوقات من عند الله، كلها مخلوقات من عند الله، فلماذا يخاف منها؟

الزمجرة تقترب، رؤوس الكلاب منكسة وصوت خطواتها يقول إنها قادمة باتجاهه، الأرض ترتج والظلام يقترب أكثر. نظر خلفه ووجد أنه محاصر، هناك ظلال سوداء تتراقص على البيوت.

أمسك مشعل معلق بجانبه واستل سيفه، دفع زينب خلفه ووقف مواجهًا الكلاب التي اقتربت حتى وقفت أمامه تنتظر أمرًا بالهجوم، شعر بانقباض في قلبه وخوف يتسلل إليه، حاول نفض الخوف، زينب بجانبه ترتعش، تذكرت والدها الميت والمخاوف التي تطاردها من صغرها.

تراجع شمس إلى الخلف ونظر إلى زينب وقال لها بحسم ووعد صادق «سأحميك». لم ترد، عينيها ثابتة، انتفاضة بسيطة في جسدها.

«ليل الخانقاه ملعون». تتذكر الجملة التي قالها لها والدها

عرابي حين دخل بها الخانقاه أول مرة. لم تفهم، كانت صغيرة لا تتعدى ١٠ سنوات، في ليلتها الأولى وحين كانت في غرفتها شاهدت ما تشبه أمها الميتة تطلب منها أن تخرج إليها من البيت، طلبت منها حتى أن تفتح لها النافذة لتدخل.

كادت أن تفعل ولكن والدها نهرها وكبلها. حينها صرخت وبكت لأن والدها يحرمها من رؤية أمها، لم تدرِ ماذا يعني الموت؟ هل يعني الفراق مع إمكانية العودة واللقاء؟ أم فراق بلا ونس بمن رحلوا؟

تذكرت طعنة الحرس لوالدها، شاهدت في عقلها وجه ابيها الميت ونور الحياة يخفت من عينيه وينطفأ. شعرت بشيء يرج جسدها، استوعبت أنه شمس الدين، أمسك كتفيها ورج جسمها بقوة ليوقظها من رؤى الخوف والموت.

«زينب، لا تفكري في شيء، فكري في النجاة فقط الآن». قالها صارخًا يحفزها على الخروج من دوامة الرعب، واتخذ وضع الدفاع عن نفسه وعنها.

قفز كلب ناحيته فمال بجانبه وضرب سيفه في جانب الكلب فسقط يئن ويعوي.

الظلام يزيد، رائحة الموت تطوف حوله، تحاصره، تذكر والده والتضحية التي قام بها، تذكر الشق في بلدته البسيطة

الذي يقدمه إليه الأهالي القرابين. نفض عن ذهنه تلك الأفكار وانحنى متفاديًا هجوم كلب آخر.

دار حول نفسه ومد نصل سيفه وأصاب قدم كلب حاول مهاجمة زينب التي ظلت على وضعها لا تستوعب ما يحدث، عقلها يدور في مخاوف لا تنتهي. أمسك المشعل ودفعه في كلب آخر عوى وتراجع إلى الخلف وسائل لزج يئز من فمه.

شعر شمس بحرارة غريبة في صدره، مد يديه وتحسس ووجد القلادة، ساخنة كنار تكوي جلده، رفعها ونظر فيها ووجد الفص الأحمر يتوهج بقوة.

شاهد ما يشبه أجساد بيضاء شفافة تطوف حوله، بدت مثل الملائكة التي تستعد لمواجهة الظلام الذي يقترب أكثر.

على بُعد خطوات، سمع صوت حارس الخانقاه من خلفه يقول «لا تخف خض الظلام وأنا معك».

زينب لا تتكلم، عينيها جامدة، وجهها مستسلم، أمسك يديها بقوة ولم يبدو أي تعابير على وجهها، ثم شعر بألم يطبق على صدره مع محاصرته في الظلام.

الموتى ينقذون الأحياء

فجأة، وجد شمس نفسه في مكان أشبه بالجبل الناري، أحمر اللون تتصاعد من صخوره أدخنة رمادية، صوت مدوي يرج الأرجاء بصراخ معذبين، الأرض على مرمى البصر عبارة عن مروج محترقة وبيوت منهارة، مآذن محطمة وأحصنة مقتولة على الأرض يغطيها ذباب ورائحة نتانتها تزكم أنفه.

سار بخطوات مرتعبة ونظر حوله باحثًا عن زينب أو حارس الخانقاه ولكنه لم يجد أي منهما، استعد للنداء عليهما ولكن الكلمات لا تخرج منه، وضع يده على فمه ووجد جلدًا، فمه ملتصق ببعضه البعض، زاد الرعب بداخله وأحس بالأرض ترتج من تحته وصوت فوران يأتي من خلفه.

نظر ورائه وشاهد من مكان بعيد تصاعد لأدخنة سوداء لا تنتهي، شاهد مسوخ تتشكل في السماء، بدأ يظهر من حوله بشر يصرخون ويركضون بخوف، تعرقل بعضهم على الأرض، يبحثون عن ملجأ آمن، والظلال الغريبة تهبط عليهم من السماء وتدخل في أجسادهم وتكسر عظامهم بصوت جعل شمس يصرخ وهو يضع يديه على أذنيه ليمنع عنه هذا الصوت البشع.

ارتجت الأرض أكثر، نبتت من الرمال رؤوس بشر، تفسخت

وخرج منها الدود وركضت كلاب سوداء ضخمة تأكلها بشكل مقزز، صرخت الرؤوس في الأرض، انفتحت الأفواه بصرخات لا تتوقف.

تعالى صوت كلمات غريبة حوله تقول «ومن الشفقين يخرج النور». تكررت الجملة أكثر «ومن الشفقين يخرج النور». بحث شمس حوله عن مصدر الصوت ولم يجده، الأرض انشقت، لفظت أجساد الموتى، أجساد متحللة وأكفان بدأت الكلاب تنهش فيها وتركت الرؤوس، اختارت الظلال الأكفان لتسقط فيها وتركت الأحياء يهربون.

شعر شمس بثقل في رأسه، مد يده ووجد هالة سوداء فوقه، داخلها وجه يشبه المسخ، شيطان!

ركض بسرعة والظل فوق رأسه، لم يدرِ بنفسه أنه يركض باتجاه الجهة التي يخرج منها الدخان الأسود، صرخات البشر تصم أذنيه، بدأ يصرخ مثلهم، الأرض ترتج وتلفظ موتاها أكثر.

يوم القيامة قد حل، قالها وعينيه تبكي ومستمر في ركضه حتى وصل إلى مكان يشبه البئر والصوت يزيد من حوله وضوحًا «ومن الشفقين يخرج النور».

ارتجت الأرض مجددًا ووجد نفسه يسقط مندفعًا إلى

أسفل البئر، حاول أن يتمسك بأي شئ ولكنه فشل، استمر في سقوطه لثواني حتى شعر بلطمة في عقله وحين فتح عينيه كان الظلام يحاصره وصوت حارس الخانقاه بجانبه يقول «لا تخف، لا تخف، أخرج القلادة فنورها يمحي الظلام».

مد شمس يده للقلادة المتوهجة وبدأ يدور بها حولها، في يده زينب لا تصرخ ولا تعلق، وأصوات الزمجرة تتعالى حوله ولا يرى مصدرها.

ضرير لا يرى إلا يده. شعر بنفسه هكذا.

سمع صوت بشري قاسي يقول بغضب: «أين ذهبوا»؟ نظر شمس حوله باحثًا عن مصدر الصوت، لم يرَ سوى الجسد الضخم للحارس وملامح زينب الباهتة.

سمع الحارس بجانبه يقول «نور الشفقين يمحي ويخفي». فهم شمس، ظل يحاول أن يسلك طريقه في الظلام، حاول طرد أي مخاوف داخله، قاوم نفسه بقوة لم يعهدها داخله قبلًا. «الخوف هو ما سيقودهم إليك». سمع الجملة من حارس الخانقاه.

ضم شمس قبضتيه بقوة أكثر، حاول السيطرة على مخاوفه أكثر، القلادة تزيد توهجًا، تزيح الظلام بعض الشيء فيخطو عائدًا إلى البيت، تبقت له أمتار معدودة.

الخوف داخله يزيد، سلط تفكيره في زينب، في الظلام يرى مسوخًا حوله، كلاب، مخلوقات تشبه الشياطين، قصيرة بقشور على وجهها وقرون صغيرة ملتفة تشبه الكبش. استمات في ألا يفكر فيما يراه، تفادى الاصطدام بأي منهم، يبحثون حوله ولا يرونه رغم أنه وسطهم.

اقترب البيت، شعر بطاقة إيجابية تقترب منه، سمع صوت يتردد وسط الظلام. تكبيرا!

هناك من يكبر ويسبح ويؤذن.

الأهالي!

يحاربون خوفهم بالذكر والتسبيح، الطاقة الإيجابية تشتد، صوت الزمجرة الغاضبة يزيد في المقابل، مست يده مخلوق!

شهق وكاد أن يصرخ، اقترب منه المخلوق ولكنه لا يراه، يشم الهواء بمنخار طويل يشبه الغراب، عينيه طولية وأقدامه نحيلة، يشبه طفل مشوه، أغمض شمس عينيه وتوقف.

ظل المسخ يدور حول نفسه، يشعر بوجود شمس ولكن لا يراه.

استمر المسخ لثواني يدور حول نفسه ثم أكمل طريقه

وتنفس شمس الصعداء واستمر حتى وصل وتحسس باب البيت، دفعه بحرص وأصدر صوت جعل المسوخ تلتف إليه فجأة وصوت البشري الملعون يصرخ «لا تجعلوه يدخل». قبل أن يتم جملته كان شمس قد التف ودفع زينب إلى الداخل لتسقط أرضًا وتبدأ في الاستيعاب وتصرخ وقفز خلفها شمس وأغلق الباب بقوة خلفه.

تصاعدت طرقات على الباب الخشبي، وتأكد شمس من وجود دعامات وأقمشة مغموسة بالزيت من الخلف تمنع دخول أي شرور ثم فرد جسده على الأرض وبدأ يطرد توتره بأنفاس متلاحقة.

***

خاتم سلـــــــــيمان

جلست زينب صامتة، عيناها دامعتان، جسدها الضئيل ينتفض كل ثواني، لاحظها شمس واقترب منها وربت على رأسها. رفعت وجهها الدقيق نحوه، لمح في نظرتها أطنانًا من الخوف، حاول مواساتها بكلمات هو نفسه لا يقتنع بها، في الخارج يسمع أصوات المخلوقات وصراخ بعض البشر، لا يقدر على المجازفة بالخروج مجددًا. هذه المرة إن خرج مُنقذًا سيعود ميتًا محمولًا على أعناق الرجال.

الوضع صعب، نظر شمس خلفه إلى حارس الخانقاه. سأله بتردد ولا يريد أن يخيف زينب منه: «ما الذي حدث في الأسفل»؟

نظرت زينب مستفهمة، لا ينظر إليها وهو يتكلم، يبدو أنه يتحدث مع شخص آخر لا تراه في الغرفة، تراجعت بظهرها في الأريكة بشكل غريزي كأنها تحتمي منه، خائفة، مرتابة.

تجاهل شمس ما حدث ورد حارس الخانقاه بصوت لا يسمعه إلا الشاب:

-الفص الأحمر يحمل سرًا لا تعلمه، قوة لا يضاهيها قوة، دم الحكيم.

زادت الحيرة على وجه شمس. سأل: «أي حكيم»؟!

أجاب الحارس وصوته الأجش حمل بعض الانفعال:

-حكيم في الماضي البعيد كان يحكم جميع المخلوقات، يؤتمر الجميع بأمره، صُنع بأمره فصًا وُضع في خاتم وتناقلته أجيال وبحثت عنه المسوخ والشياطين والجن للسيطرة على الأراضي حتى قرر حكماء من بعده خلع الفص وتقسيمه على قلادتين كل منهما في أرض مختلفة، واحد في الرابعة والثاني في أرضكم الأولى، لمنع الوصول إلى تلك القوى، حتى نجح يعقوب في الوصول إليه قبل موته بفترة وجيزة.

«خاتم سليمان»! رددها شمس وارتسم الذهول على وجهه. حيرة على وجه زينب التي لا تسمع ما يقال ولكنها تشعر بوجود حدث جلل.

أكمل شمس الدين بعصبية: «إذن ما يريده الظلام هو قوة الخاتم، الفص، وليس السيطرة»!

أجاب الحارس: «الاثنان، إن حصل على قوة الخاتم سيطر على جميع الأراضي بسهولة، وإن نجح في السيطرة على أرضكم فقد ضمن الحصول عليه أيضًا».

ارتفع صوت شمس المحتد: «وأنا الذي كنت أظن أن كل ما يحدث هو بسبب الخانقاه، الآن فهمت، ولماذا لم تقول لي منذ البداية أن الكارثة برمتها تستهدف الفص الذي معي»!

انخفض صوت الحارس وقال: «لأنك لن تصدق إلا بعد أن ترى قوته بعينيك، الفص حين يمتزج بالظلام يصنع طاقة تخفي صاحبه، هالة تحيط به ومن معه، تمنحه بصيرة يرى بها إجابة الأسئلة».

أشار إليه شمس بعصبية واضحة: «وأنت تركتني في الظلام ولم تتدخل لإنقاذي في البداية حتى تؤكد نظريتك».

«مع من تتحدث يا شمس الدين»؟ سألته زينب والخوف يزداد داخلها، تراه يحتد ويغضب وهما وحيدين، لا ترى متكلم أو مُناقش، تشعر بوجود كيان غريب معهما ولكن لا تراه.

أراد شمس أن يشرح لها ما يحدث ولكنه لم يرّد أن يزيد الضغط عليها. نظراتها ثاقبة نحوه، مسلطة عليه، وقتها لم يقدر على الإخفاء أكثر، خرجت الكلمات من فمه بلا سيطرة رغم أنه كان في البداية لا يريد الحديث معها عن ذلك حتى لا يُخيفها.

حكى لها ما حدث معه، نظراتها مصدقة، ثبات عينيها وهو يتحدث يدل على أنها لا تُكذب قوله.

انتهى ووصل إلى الرؤية التي شاهدها في الظلام وأثناء سرده توقف. لمعت فكرة في عقله، شعر بإجابة لما يدور

ونهاية لما يحدث. ابتسم وصمت، نظرت إليه متعجبة. قال لها بلهجة المنتصر: «علمت ما سأفعل لأنهي اللعنة».

***

القرافـــــــــة

طرق السلطان بقبضته على مسند كرسيه وهو يصرخ «هل جُننت يا شمس الدين»؟

علت نظرة الثقة محيا شمس وأجاب: «لم أجُن يا مولاي السلطان، نحن نواجه ما لا يمكن لبشر مواجهته، والحل كما قلت لك».

نهض الوالي وجسده الممتلئ يهتز غضبًا: «تريد أن تدنس مقابر الموتى وتقول هذا هو الحل»؟!

أشار شمس بأصبعه موضحًا: «حل مؤقت».

وضع الوالي يديه خلف ظهره وزاد في عصبيته وهو يمد عنقه للأمام: «حتى أنه حل مؤقت وليس بدائم».

حاول شمس أن يمتص غضب الرجل، قال بسرعة وبلهجة مغربية: «فكر في الأمر معي يا مولاي، لكل سلطان في المحروسة مشروع ورؤية، وأنت مازالت في بداية حكمك، المطلوب فقط أن ننقل رفات بعض الموتى من باقي القرافات والمدافن إلى تلك الصحراء لتكون مدفنًا ملائمًا، حتى أنا نفسي كتبت وصيتي وطلبت فيها دفني في المكان وعمل مقام باسمي.

تعجب السلطان وسأل وقد بدأ يلين صوته: «وما الفائدة من ذلك، طلبت منك أن تضع حلًا للجنون الذي حل على المحروسة وها أنت ذا تقول لي إن أبني قرافة جديدة في الصحراء»!

أراد شمس أن يشرح للسيطان خطته ولكنه من داخله يعلم أنه لن يصدقها، لن يصدق أن رائحة الموتى ستجذب جميع الشرور التي خرجت وتجعلها تتركز في مكان واحد محسور، وحينها ينفذ خطته ويستطيع أن يضع حدًا للشق الأضخم في بر مصر.

صمت لثواني وفكر فيما سيقول ثم اتخذ قراره:

-المسوخ التي خرجت وتؤرق المحروسة تبحث عن الأحياء، تطاردهم، لكن غذائها الوحيد هو الموت والرفات والمقابر، تتغذى على الطاقة التي فنت من أجساد الأحياء، وأنا أريد جميع تلك الشرور جميعًا في مكان واحد بالقرب من المكان الذي خرجت منه.

ظل السلطان صامتًا، لديه يقين بأن هناك أشياء غريبة تحدث، سمع الكثير، تناقلت الألسنة أحداث ما وقع أمس في المناطق المحيطة، تفاويت الحديث بين مسوخ ظهرت وظلام حل وجن وشياطين حاولوا اقتحام المنازل، حتى هو نفسه أصابه ما أصاب الجميع حين استيقظ فجرًا على

صوت في غرفته وحين فتح عينيه شاهد رجل مشوه العينيه والفم يقول بصوت مرعب «القصاص» يتذكر هذا الرجل.

يتذكر حين كان نائبًا على دمشق ١١ سنة حتى عزله السلطان الأشرف خليل وقُبض عليه مع جماعة من الأمراء، كان من ضمنهم سنقر الأشقر، وعندما حكم عليه بالإعدام عفا الأشرف عنه، بشفاعة الأمير بدر الدين بيدرا المنصوري. يتذكر مؤامرته على السلطان الأشرف لاغتياله ثم الهروب. استيقظ من النوم ووجد أمامه السلطان الأشرف وعلى عقنه حبل غليظ وعينيه جاحظتين دمويتين وجلده أسود منتفخ، كان يقترب منه وبجانبه أمير أخر أمر بقتله قبل أيام في خزانة شمايل قرب باب زويلة. حاول الصراخ حينها فلم يقدر، مد قديمه ونهض والأشرف أمامه والرجل بجانبه يقتربان منه وحينها استجمع قوتها وصرخ «يا حرااااس» وبعد أن دخل الجند إلى الغرفة مهرولين أشار بيد مرتجفة ناحية المكان الذي كان فيه الرجلين ولكنه لم يجدهما.

أغلق السلطان عينيه على الذكرى، حاول طردها من رأسه، وقال لشمس الدين آمرًا: «لك ما شئت، سأصدر أمرًا بذلك على أن تتكفل أنت به وتنهيه بدون أن تدنس الموت أو تجلب لنا مصائب الدراويش والمتصوفين فوق رؤوسنا».

تراجع شمس الدين وعلى فمه ارتسمت إبتسامة نصر وخرج.

***

«أحصيت أكثر من ٢٠ قتيلًا». قالها أحد الجند لشمس الدين وهو يشير إلى عربات خشبية محملة بتوابيت وضعت فيها جثث قتلى يوم أمس.

شعر شمس بغصة في حلقه، سعل ليطردها، شعور الموت يؤلمه، فكرة أن أحلام الأحياء تُدفن في تابوت مظلم تثير خوفه. كل من مات كان لديه أحلام لم يحققها، منهم من طلب المال أو السلطة أو البنون أو راحة البال.

نظر فوقه ليجد السماء غائمة، الوقت ظهرًا ولكن الغيوم تتكاتل فوق بعضها البعض، تتزاحم، تسد ثغرات الأزرق فيسود الرمادي الكئيب.

أشار إلى عُمر الذي وقف متأهبًا أمامه، ليهز الشاب رأسه ويقفز برشاقة فوق حصانه وينادي على من خلفه «أتبعوني».

تحرك الركب، عُمر في الصدارة يقود التوابيت المحملة إلى الخانقاه ومن الجانبين جند يتحركون متحفزين لمواجهة أي خطر، وفي الخلف كتيبة من البصاصين المدربين للحراسة.

تحركوا حتى دخلوا إلى الصحراء أمام نظرات شمس المترقبة، شاهد دوامات هواء تطيح بالرمال وتتلاعب بها، طيور جارحة تطير فوقهم تطلع نداءات مخيفة، ومن الخلف يرى بعض المنازل المتراصة وقف بعض أهلها ينظرون بتعجب إلى ما يحدث.

قرر شمس أولًا نقل جثث موتى الأحداث التي حدثت في المحروسة إلى الخانقاه واتفق مع لحادين وحافرو القبور على صنع مدفن ضخم توضع فيه الجثث بشكل منظم، كل ما يريده أن يشتت قوى الظلام، يجعلها تتركز في الخانقاه لوقت محدد، وبعدها سينقل باقي الرفات من المدافن الأخرى ومع زيادة الجثث في المكان سيجذب هذا باقي الشرور في بقية المناطق للمجيء إلى هنا.

«هل أنت واثق مما تفعل»؟ سمع العبارة من جانبه، لم ينظر إلى حارس الخانقاه بجانبه، رد بصوت مُجهد: «محاولة، إن فلحت استطعنا السيطرة على الوضع، وإن اخفقت فنأمل أن يتولانا الله برحمته وتكون نهايتنا سريعة».

أطرق ببصره إلى جانبه ووجد زينب جالسة على الأرض. أمسكت بعصا رفيعة خطت بها على الرمال رسومات شمس وأشجار، ابتسم ابتسامة باهتة واتجه نحوها. شعرت بوجوده ورفعت رأسها نحوه وابتسمت بتكلف. ليست على

طبيعتها، الألم يعتصرها والخوف يمزق أوصالها.

أراد أن يقول لها أي شئ يهون عليها ولكن عقله لا يحمل سوى الخطط والسيناريوهات المتوقعة لما سيفعل، يُحبها، يعلم ذلك علم اليقين، يؤلمه أن يراها بهذا الشكل.

«هل تريد قول شيء»؟ سألته وهي مستمرة في الرسم بالعصا. مد يده ووضعها على يدها برقة وقال: «لا شيء سوى أني خفت عليكي كثيرًا، لم أتخيل أن يحدث لك سوء».

تنهد وأكمل: «حين شاهدتك في الشارع تصرخين لم أصدق نفسي، لم أفكر في مخاطر الخروج، كل ما فكرت فيه أن أنقذك، أن امنع عنك أي أذى، ركضت بقلب وليس بقدمين، حاربت بنياط روحي وليس بسيف، وخضت الظلام وكنُتي لي نورًا داخله».

ابتسمت في خجل، لمعت عيناها بُحب واضح لم تخفه، ثم عادت إلى طبيعتها الجامدة وكأنها تخجل أن تبتسم أو تبادله الشعور. لم تعلق. أبعد يده عن يدها، شمها ووجد رائحة ياسمين يبدو أنها كانت تعطر نفسها به، ابتسم بحب لها ونظر إلى الحارس بجانبه الذي وقف جامدًا ثم جلس أرضًا ينتظر عودة عُمر والجند بعد إنتهاء مهمتهم.

***

انعكست الشمس على أكتاف الرجال اللامعة من العرق إثر الجهد والحر، تصاعد الدعاء بالرحمة على من ماتوا، تصاعدت كلمات التحفيز من عُمر للرجال للإنتهاء من الحفر ودفن الجثث ووضع شواهد تدل على هويتهم في أسرع وقت قبل حلول الليل كما أمر شمس الدين.

لا يعلمون السبب، المحروسة بها قرافات عديدة فلماذا يُدفنون هنا، صغروا للأمر وتناقلت الأيدي قفف الرمال وتصاعد أصوات ضرب الفؤوس في الطين والرمل.

نظر عُمر حوله متأملًا، المكان يراه لأول مرة، سمع أقاويل أنه كان مخفيًا ويحمل سرًا، بل أن قائده شمس الدين يحمل سرًا، يتحدث وحده كثيرًا، معه قلادة تلمع بشكل غريب، حتى أن بعض الأمراء طلبوا منه أن يكون جاسوسًا على قائده لمعرفة كيف أثر في الوالي وجعله مسؤولًا بعد أن كان مطلوبًا.

هناك أوجه تشابه بين الخانقاه وبين المناطق القريبة من الدرب السلطاني، الحفر في الأرض، الألواح، أسماء الأهالي والأرقام، بعقله استنتج أنه من هنا كانت البداية، من هُنا خرجت اللعنة، ولكن ما سببها أو تفاصيلها، لا يعرف.

«هيا يا رجال، ليس لدين متسع من الوقت» صرخ بها ونهر أحد العمال جلس أرضًا ليستريح.

نهض الرجل مزمجرًا غاضبًا وأمسك فأسه واستكمل الحفر.

مرت ساعة وبدأت أكف الرجال تتناقل فوقها التوابيت لوضعها أرضًا وإخراج الأجساد المكفنة بالأبيض منها.

بحرص بالغ وضعوا الجثث في القبور وأهالوا عليها التراب وهم يقرأون الفاتحة، لمح عُمر من بعيد حفرة ضخمة على الأرض يخرج منها ما يشبه خيط من الدخان السميك!

أمر الرجال بالانتهاء سريعًا ودفعه فضوله لتناسي تحذير شمس بعدم الاقتراب من أي شيء في الخانقاه، اقترب أكثر من الحفرة، حافتها رملية ومن أسفلها طين أسود، قعرها لا يراه، الدخان يخرج منها وكأنه كتلة لزجة سوداء تختفي فوق الحفرة بأمتار!

اقترب أكثر ونظر في الأسفل، أخرج سيفه ومس به الدخان فانتفض جسده بعد أن شاهد الدخان يتراقص وشعر بأنه مس شيء لزج بسلاحه!

كاد أن يعود ولكن صوت قادم من الأسفل جعله يقف حائرًا. «عُووووومر». هناك من ينادي باسمه!

صوت طفولي!

«عُووووومر»! اقترب أكثر، شاهد وجه يتشكل في الأسفل،

وجه طفل!

اخيه يوسف!

يوسف في البئر! يا لتصاريف القدر! نزلت دمعة من عيني عُمر، يوسف الذي مات بالطاعون قبل عامين يراه الآن!

نظر إليه وقلبه يخفق بقوة، ركع على ركبتيه وابتسم وعينيه تزيد البكاء، تحشرج صوته من التأثر: «يوسف».

سمع صوت اخيه ووجه يتألم في ظلمة الحفرة «أنقذني يا عُمر، أنقذني يا أخي».

كاد أن يمد يده لأخيه ولكنه تمالك نفسه، الموتى لا يعودون إلى الحياة، الشرور تتلاعب به!

ظل على وضعه لثواني، حاول السيطرة على مشاعره المتضاربة، تراجع إلى الخلف ولكن وجه يوسف ارتفع فجأة حتى كاد أن يخرج من الحفرة التي اسودت بشكل غريب رغم أن الليل لم يحل بعد.

تراجع عُمر أكثر وصرخ بخوف ومد سيفه للأمام مهددًا، زاد الصوت القادم من الحفرة تهديدًا: «أنقذني يا عُمر، انا اخيك، ستتركني هنا وحدي، أنقذني وإلا لن أتركك»!

زاد عمر في بكائه وسمع خطوات قادمة من خلفه، نظر

ووجد بعض العمال والجند ينظرون إليه باستغراب، أعاد النظر إلى الحفرة فلم يجد أي شئ، مسح دموع عينيه ونهض بسرعة وهو يصرخ فيهم «أنهوا العمل ودعونا نخرج من هذا المكان الملعون».

***

يعيش السلطان حسام الدين

وقف الآلاف من العامة والأمراء يترقبون ظهور حسام الدين لاجين بعد أن أعلن المنادي في الشوارع عن كلمة لسلطان المحروسة.

تزاحمت الأجساد وتلاصقت في انتظار وترقب لما سيقال. ظن البعض أنه سيفرض ضرائب جديدة، وخيل لآخرين أنه سيتحدث عن اللعنة التي حلت على البلاد، وفصيل ثالث رأى أنه سيعلن عن تولي أميره المحبب منصب جديد ويريد أن يضمن ولاء الشعب له.

ظهر موكب السلطان، شق الجموع بهدوء وهيبة، تراجعت الأقدام والأجساد احترامًا للسلطة وخوفًا من بطش قد يحدث من السلطان الجديد كعادة كل حاكم يريد أن تكون بداية سلطانه شديدة لكسر أنوف المصريين.

نزل حسام الدين وبعباءة بسيطة ليست كما توقعها الناس، بدا كزاهد أو درويش سيخطب. صعد درجات منبر أحضروه خصيصًا من القلعة ليحدث الناس من فوقه. لم يصعد المنبر كله، ارتفع فقط بعض درجات وتوقف مستديرًا للناس جامد وجهه وانكسار في عينيه لا يغفله أحد.

بجانبه نائبه شمس الدين الذي ولاه رغمًا لتهدئة الأمراء.

«أيها الناس، لبيتم النداء وشاكر حضوركم». عمت همهمة بين الجموع، أي شكر هذا الذي يقدمه سلطان للعامة!

أكمل بنبرة قوية:

«لن أطيل عليكم الحديث فكل في ليلاه يجول، أما بعد. قررنا بما شعرنا به في نفوسنا بأنه خير لنا ولكم، أن تُلغى ضرائب فُرضت عليكم طوال السنين الماضية، ستُلغى ويبقى ما يُستحق دفعه فقط، وستفتح الأهراء السلطانية ويوزع منها الغلال الزائد عليكم».

زاد الجدل، ارتفعت الألسنة بدعاء وتشابكت بكلمات غاضبة من مماليك حوله يقفون لا يعلمون كيف يتخذ قراره بدون مشورتهم. استشعر السلطان غضب المماليك وأكمل بصوت أكثر علوًا:

-ستستمر الجامكية في صرفها، لن تقل ولن تزيد، هي حق لمن يحمي ويصون الأرض.

نظر العامة إلى بعضهم البعض، يعلمون أن الجامكية هي رواتب شهرية تُصرف للأمراء والمماليك ومعنى ذلك أن السلطان يحاول إمساك العصا من المنتصف، لا يريد الانقلاب على من أتوه سلطانًا ولا يريد إغضاب الشعب.

السلطان في عقله معركة تدور رحاها بلا رحمة، بحسب

ما فهم من شمس الدين فاللعنة على المحروسة تقوم على الخوف، الرهبة، الأنانية، المشاعر الإنسانية التي تضرب النفس وتؤذيها، ولهذا يحاول أن يطمئن الجميع، يمنحهم بصيص أمل في الغد، يريد أن يقال عنه أنه كان سلطانًا خيرًا رغم أنه ألماني، بل أنه المملوك الوحيد الذي وصل إلى السلطة وأصله من تلك البلاد البعيدة.

كل همه أن يوقف الغلاء ويوفر السلع الأساسية للشعب ويلغي الضرائب المفروضة عليه واحدة تلو الاخرى. صمت لثواني وأكمل بصوت متهدج متأثر: «لو عشت لما أبقيت مكسًا».

تعالى الهتاف للسلطان بعد جملته الأخيرة، الرجل يعدهم أنه لو عاش لما أبقى أي ضرائب مفروضة عليهم، ضرائب كسرت ظهورهم لسنوات لا تُعد ولا تحصى، تفنن فيها وفي أنواعها وأسمائها السلاطين، ضرائب تبقى فقط أن تُفرض على أنفاسهم التي تخرج ودموعهم التي تسيل قهرًا.

دوى الهتاف أكثر وأكثر جعلت السلطان يرفع يده ويضعها على رأسه تقديرًا للناس وينزل بخطى بطيئة من منبره وعينيه تنظر إلى الظلام الذي بدأ يفرض نفوذه على شفق الغروب.

***

غطت ظلمة الليل أنوار الأحياء بسواد قاسي، تصاعدت دقات القلوب الراجفة، الوقت بعد العشاء بقليل، أنهى عُمر عمله مع الرجال وتم دفن الجثث وترك شمس الدين زينب في أحد البيوت الآمنة في الغورية ثم عاد قرب الخناقاة ووقف منتظرًا.

طلب من جميع الجند الرحيل، أمرهم بأن لا يتتبعوا أثره، وجه عُمر بحماية زينب بحياته إن لزم الأمر وأقسم عليها أن لا تتبعه. رغم دموعها وتوسلاتها تركها ورحل واعدًا إياها بنصر مبين والعودة سالمًا.

تذكر وجهها الغاضب، نبرتها المحتدة، حين قال لها إنها لن تأتي معه لينهي الأمر. خائف عليها، إن مات في معركته الأخيرة فسيكون بطلًا وإن عاش منتصرًا فيكفيه أن تكون زينب ملكه.

الهواء بارد، عبائته ثقيله لا تقيه شر الطقس، يده على سيفه ويده الأخرى مضمومة كعادته حين يتوتر أو يصيبه الخوف.

دار بصره في المكان، قريب من الخانقاه على بعد مئات الأمتار، ينتظر فقط إشارة محددة ليبدأ خطته التي رسمها في عقله بدقة، خائف من التنفيذ ولكنه يشعر أنها هي الحل

الوحيد.

تحسس القلادة في عنقه واطمأن لوجودها خلف الملابس، يشعر بتوهجها بعض الشيء، لديه هاجس يقول إن الخطة لن تسير على ما يرام. نفض الفكرة السوداوية من رأسه وبدأ يخط بقدميه في الرمال أشكال تصرف عنه التفكير.

«هل أنت جاهز»؟ من سواد الليل طرح حارس الخانقاه السؤال. لا يراه جيدًا بسبب هيئته السوداء ولكنه يعلم بجوده بجانبه. «بل هل أنت جاهز»؟ هكذا رد شمس. الخطة تعتمد بشكل كبير على الحارس وبدونه سيفشل.

لم يرد المخلوق، لكن شمس عرف أنه جاهز، هكذا دوره، أن يحمي الشق والخانقاه.

تصاعد صوت دقات قادمة من بعيد، رُجت الأرض عدة مرات، ظهرت ظلال ضخمة في السماء قادمة من بعيد تجاه الخانقاه.

أمسك شمس القلادة وأخرجها لتبعث ضوء أحمر واضح في ظلمة الليل، زادت أصوات الركض والدقات واقتربت أكثر من مكان شمس.

«هيا، حان الوقت». قالها شمس وركض بأقصى سرعته إلى الخانقاه، تلاحقت أقدامه تبعثر الرمال حوله، تفادى السقوط

في الحفر، تفادى نباتات وأشجار، قفز من فوق بقايا حفر من الصباح، واتجه إلى مقام يعقوب المنهار.

السور محطم، خاضه شمس راكضًا، قابل النافورة المائية المدمرة، الأشجار المقلوعة والنباتات المنزوعة، أصوات ركض من خلفه تزيد، ظلال تطير بجانبه وشعور بأن هناك من يمس جسده ويدفعه جانبًا ليسقط، وصل إلى الفتحة التي يدخل منها إلى الخانقاه وانحنى بسرعة وأخذ يزحف.

سمع من خلفه صوت المسخ البشري مهددًا: «اعطنى القلادة وإلا دمرت عالمك».

زاد شمس من زحفه، وصل إلى النهاية، من خلفه يسمع أصوات زحف أخرى، المسخ البشري خلفه، دخل ورائه.

نزل من النفق إلى قاعة الخانقاه ووقف منتظرًا.

ثواني وظهر المسخ، نزل على قدميه وعينيه مليئة بالشر، كشر عن أنيابه، أخرج من نطاق ملابسه خنجرًا طويلًا نهايته ذات حدين.

«يبدو أن القلادة هي التي تقودك إلي، لأنك عرفت مكاني أول مرة وأتيت إلى المنطقة التي كنت فيها مباشرة، والآن أتيت خلفي إلى الخانقاه، كنت واثقًا من أن القلادة بها طاقة تدفعك خلفي».

وتابع وهو يشير حوله: «أول مرة تدخل هذا المكان أليس كذلك»؟ قابل المسخ البشري حديث شمس بضحكة عالية ساخرة: «وسأدمره عن بكره أبيه».

دار شمس في القاعة وقال: «لطالما سألت نفسي عن سبب وجود هذا المقام والبئر رغم أن شق الخانقاه في الخارج».

لم يفهم المسخ البشري، نظر إلى البئر خلف شمس وتذكر الحفرة التي خرج منها في الخارج.

أكمل شمس بتحدي:

-سألت نفسي عدة مرات عن هذا الأمر وحين سألت حارس الخانقاه الذي صنع المقام أجابني أن البئر هو شق ضخم يقود إلى عالمه، هو الثغرة التي جاءت به إلى عالمنا.

وتابع وهو ينظر إلى البئر الذي بدأ يظهر فيه نور أخضر:

-من المعضلات التي تواجه فكرة خروج مخلوقات من الأراضي الأخرى أن كل مخلوق يخرج يسبب شقًا وثغرة تتيح خروج مخلوقات أخرى، مثلًا حين خرج يعقوب من الأرض الرابعة تسبب في شق ضخم أخرج الشرور منه، أما حين خرج حارس الخانقاه من أرض الغيلان والمردة فمن الطبيعي أن يسبب شقًا هو الآخر يتيح لمخلوقات عالمه

الخروج، ولهذا بنى حارس الخانقاه هذا المقام ليكون سجنًا ولحماية الخاناقاة من بني جلدته.

وأضاف بحماسة: «صنعه حتى يصنع حاجز حماية تمنع خروج المردة والغيلان إلى عالمنا».

تحرك حارس الخانقاه إلى الصخرة الضخمة الموضوعة على البئر وحركها بقوة لتسقط أرضًا وتتحطم بصوت عالي، ولم تمر ثواني حتى صدر صوت زئير غريب قادم من البئر.

ارتجت الأرض، وزاد النور الأخضر في المكان حتى بدا وكأنه يغطي على الظلام كله، ثم خرجت يد مشعرة سوداء من البئر تبعها وجه مسخ مشوه غريب نظر إلى شمس الدين وإلى المسخ البشري وقفز برشاقة غريبة رغم جسده الضخم ووقف أمامهما.

شهر المسخ البشري سيفه وأصدر زمجرة مخيفة، فيما اقترب حارس الخانقاه من شمس الدين ووقف خلفه ونظر إلى المارد الضخم الذي خرج من البئر وأشار إلى المسخ إشارة واضحة أنه العدو.

اقترب المارد من المسخ البشري وقبل أن يدخلا في عراك دموي ظهرت يد أخرى من البئر وقفز منها مخلوق أسود لديه ذيل قصير يلاعب خلفه وعينيه رماديتان ويغطي صدره

حروق برتقالية غريبة.

تصاعدت أصوات الزمجرة في المكان وقال شمس الدين بانتصار: «حين فكرت عن السبب الذي دفع الشرور إلى الخروج بهذه القوة لم أجد إلا أنها وجدت مضيفًا يحفزها ويحركها، قائد تتبعه الظلال والمخلوقات الأخرى، سيد كان لابد من خروجه حتى يتم اتباعه، أما في البداية فكانت تتصرف بهمجية وقوتها يمكن السيطرة عليها بحاجز ضعيف مثل الذي صنعه يعقوب وحد من الشرور وأخفى به الخانقاه.

قال شمس كلماته وركض باتجاه المسخ البشري الذي تفادى ضربة من المارد الضخم ووجه سيفه إلى جسد المخلوق القادم من البئر الذي صرخ بقوة من الألم وسال من جسده سائل لزج قاني ما أن مس الأرض حتى تبخرت أجزاء منها.

وجه شمس سيفه إلى عنق المسخ البشري الذي تفادى الضربة ووجه مثلها إلى شمس لكن الشاب انحنى بسرعة وقفز بعيدًا ووجه نصله إلى عنق المسخ.

ضربات متتالية، مخالب تحركت واستهدفت صاحب الظلال، وحركات رشيقة كف بها الضربات وتفاداها بشكل غريب وكأنه كان مدربًا على القتال منذ وُلد.

الأرض ترتج، مزيد من المردة والغيلان خرجت، حارس

الخانقاه يشارك بسحر حاول به تكبيل المسخ البشري لكنه بدا منيعًا أمامه. ضربات متلاحقة وجهها شمس اخطأها كلها تقريبًا إلا جرح صغير أصاب به ذراع الرجل.

اختفت الضحكات الساخرة من صاحب الظلال، تعجب من عدم دخول المخلوقات أتباعه إلى المكان، ولكنه حين نظر خلفه علم السبب، القاعة اغلقت، لم يجد الممر الذي دخل منه.

زاد غضبه، قويت ضرباته، تساقط المردة أمام سيفه وقوته، لم يبق سوى شمس ومارد أسود وحارس الخانقاه، مر الوقت وزاد الجهد وتساقط العرق، المعركة لا ينتصر فيها أحد وإن كانت كفة صاحب الظلال هي الراجحة.

سقط المارد الأخير، علت ضحكات المسخ، وقع قلب شمس، نظر إلى حارس الخانقاه وصرخ فيه: «أفتح الممر، دعهم يدخلون».

تعجب الحارس ولكنه رضخ للأمر من فوره، أشار بيديه ورسم بها دائرة ومثلث ثم قطعها بيده الأخرى فظهر الممر، تصاعدت أصوات قادمة في الممر، انسالت ظلال سوداء.

نظر المسخ إلى شمس وقال بانتصار: «هل أعلنت الاستسلام»؟ نظرات جامدة من الحارس، وهدوء واثق من

شمس الذي ما أن امتلأ المكان بالظلال والأصوات المخيفة حتى ركض بسرعة وخاض في ظلمتها.

لم يشعر بخوف هذه المرة، بل بغضب، أخرج القلادة المنيرة من ملابسه لتتوهج بشكل أكبر وبدأت تبين له الطريق، الآن لا يرونه ولكنه يراهم، دار حول نفسه بهدوء حتى لا يصطدم بأحد ويعرفون مكانه.

المسخ البشري صرخ باحثًا عنه!

الصوت قادم من اليمين، اقترب شمس بهدوء، القلادة تنير، شاهد ملامح المسخ، استعد بنصله وقفز طاعنًا الجسد أمامه، سمع صرخة وصوت إزاحة هواء فانحنى بسرعة وسيف المسخ البتار كاد أن يقطع عنقه.

تراجع شمس إلى الخلف، دوت صرخة متألمة وغاضبة من المسخ.

«واجهني إن كنت تقدر أيها الجبان». سمعها شمس ولم يهتم، عليه الحفاظ على تركيزه، تفادى المخلوقات حوله، اقترب من مصدر الصوت أكثر وشاهد ملامح الرجل ثانية.

قفز مجددًا ووجه طعنة إلى الرأس، يبدو أن المسخ علم خدعة شمس لأنه انحنى في أخر لحظة ولكن الطعنة شقت أسماله وضربت كتفه وتساقط منه دم لزج أسود ثقيل.

صرخة غاضبة جديدة، استدار شمس وتراجع إلى الخلف، كاد أن يصطدم بأحد المخلوقات، تفاداه، اصطدم بأخر، شعر به، أطلق المخلوق عواء غريب كما الذئب، انحنى شمس بسرعة وقفز أرضًا بعيدًا عن مخالب امتدت تبحث عنه، ظل ثابتًا في مكانه والمسخ البشري لازال يطلق التهديد والوعيد.

مد يديه بالقلادة باحثًا عنه ولكنه تاه وسط المخلوقات، لا يراه، حتى أنه توقف عن الصراخ والتهديد.

سمع صوت حارس الخانقاه بجانبه يقول بتعجب «لا اراه». استغرب شمس، بدأ التوتر يسكن روحه، مر وسط المخلوقات وتفادها بصعوبة، المكان أصبح مزدحمًا.

هناك صوت يقترب منه، صوت السيف! انحنى بسرعة وهو يتراجع إلى الخلف، شعر بنار في كتفه، أصابته الطعنة، صرخ من الألم وسقط السيف من يديه، أمسك كتفه الدامي والدماء تسيل منه ولا تتوقف، صوت المسخ الشامت دوى في أذنيه «وقعت يا فتى».

سمع صوت السيف مجددًا من خلفه، هذه المرة أسقط نفسه أرضًا ليضمن عدم إصابته. لا يعرف كيف علم مكانه المسخ!

أمسك سيفه وهو على الأرض ورفع يديه بهدوء وبدأ

يبحث وسط الأقدام عن الرجل، شاهد أمامه أقدام نحيلة، مشعرة، أقدام كلاب بمخالب ملتفة، ولمح أقدام المسخ!

رفع رأسه ووجد الرجل يغمض عينيه ويقترب من مكانه، يتشمم الهواء!

اللعين كان يشتمم الهواء، تعود على رائحة الموت والموتى والمخلوقات أتباعه ولكن رائحة شمس كان بها ياسمين حين أمسك يد زينب!

تراجع بسرعة إلى الخلف بظهره حتى وصل إلى البئر، ثم رفع يده وغمسها في دمه وجرحه.

أمسك نفسه عن الصراخ بألم وظل لثواني ضامنًا أن يملئ الدم يده ويزيل رائحة الياسمين ثم عاد باحثًا عن الرجل. هذه المرة لم يطل البحث، لأن المسخ البشري كان قادمًا في اتجاهه مقتفيًا أثره بالشم.

أمسك شمس يده المليئة بالدم والياسمين ونثر الدم على الأرض بقوة ثم تراجع إلى الخلف وصعد بهدوء فوق درجة تقود إلى البئر ووقف مستعدًا للضربة القاضية.

اقترب المسخ وتشمم الهواء أكثر، امتزج الدم بالياسمين ولكن الرائحة واضحة، وصل صاحب الظلال إلى المكان الذي بعثر فيه شمس الدم، ابتسم بثقة وانتصار وأرجع سيفه إلى

الخلف ببطء ثم أطاح به بأقصى قوة ممكنة تجاه الأرض بالجهة التي يفترض أن يكون فيها شمس وصرخ «مُت أيها اللعين».

وصل السيف إلى الأرض ولم يجد جسدًا فاختل توازن المسخ وسقط أرضًا جهة شمس الذي قفز من أعلى السلم ونصل سيفه مشهور للأسفل وصرخ «بل مُت أنت». نزل السيف مدفوعًا بثقل شمس على رقبة المسخ من الخلف لصدر حشرجة طويلة.

أمال شمس السيف يمينًا بسرعة ليفصل رأس المخلوق وأمسك بها وسمع أصوات صراخ وغضب حوله.

ركض شمس بسرعة متفاديًا ضربات عديدة عشوائية حتى وصل إلى البئر وقذف بالرأس فيها وتراجع إلى الخلف بسرعة بعد أن شاهد أضواء خضراء تظهر وأصوات مخيفة تترد في الأسفل.

زحف شمس بسرعة وتفادى الأقدام والجنون الذي حل حتى وصل إلى النفق الذي يقود إلى الخارج وبدأ يزحف بسرعة حتى خرج وصرخ في حارس الخانقاه «أغلق النفق».

ظل يزحف حتى خرج ووجد نفسه وسط مقام يعقوب، أصبح ظاهرًا أمام بقية المخلوقات بعد أن خرج من الظلال،

اتجه بسرعة إلى الحفرة التي تضم الشق وسط الخانقاه ثم خلع قلادته وفصلهما عن بعضهما البعض وأمسك واحدة منهما وألقى بها في الحفرة ووقف منتظرًا.

سمع أصوات تدوي في الأسفل ثم شاهد ظلال تطير من جميع الأماكن قادمة تجاهه، ركض مبتعدًا واختبأ خلف أحد الجدران وشاهد الظلال جميعها تتجه إلى الحفرة وتدخلها بسرعة.

استمر الوضع لدقائق طويلة حتى هدأ كل شيء وبدت السماء صافية والقمر يشع ضوءه الأبيض.

***

«هل أنت واثق من قرارك يا شمس الدين»؟

طرح السلطان سؤاله وفي يده أمر منه بإنشاء قرافة في مكان الخانقاه.

هز شمس رأسه وقال: «نعم يا مولاي، كما أن هناك من هم أجدر مني بمنصب شيخ البصاصين، وأنا بعدما نجحت في درء الشر واستقرار الوضع أصبحت بحاجة إلى هدوء وسكينة لما تبقى لي من حياتي».

تعجب السلطان لاجين: «لكنك تريد العيش في القرافة،

ليست حياتك يا شمس الدين، أنت بطل، مكانك في بلاطي، هنا، تأمر فيُسمع قولك، أنا بحاجة إلى شخص قوي مثلك لأن الفترة المقبلة سيكون هناك قرارات تحتاج إلى دعم منك».

أجاب شمس ببساطة:

-صدقني يا مولاي السلطان السلطة ليست ضمن أوليات حياتي، لدى الموتى سكينة وهدوء أكثر من حياة الأحياء، سأبني لي بيتًا وادفن الموتى وأعمر المكان، وهذا هو طلبي الوحيد يا مولاي».

استسلم السلطان لقول شمس وهز رأسه بعدم اقتناع وقال:

-كما تريد، أمرت لك بصرف مبلغ شهري تعيش منه أنت وزوجتك. وسأل: «اسمها زينب أليس كذلك»؟

ابتسم شمس: «نعم يا مولاي». بادله السلطان الإبتسامة وقال: «لك هذا، لقد تعلمت الكثير من هذا الدرس، حتى أني أمرت بتعمير الجامع الطولونى الذي كان مهجورًا وكان أحد مخابئ وقت فراري، وسمحت بشفاعة زوجتي بعودة زوجة السلطان بيبرس وابنه الملك مسعود خضر وحرمه من منفاهم في القسطنطينية ومعهم جثمان السلطان سُلامش لدفنه في مصر، لقد بدأت مرحلة جديدة من سلطاني اسأل

الله تعالى فيها السداد».

وتابع بلهجة قوية: أمرت كذلك ببناء بيوت وخانقاه ومقامات قرب المكان لتعميره، الدرب السلطاني بحاجة إلى تجديد يناسب حكمي ورؤيتي لإصلاح المحروسة، وكذلك أصدرًا مرسومًا بمنع أي شخص من الحديث عما حدث أو تدوينه ومن يخالف ذلك يتعرض للعقاب والسجن.

وتابع بحنق واضح:

-نكتفي بهذا القدر من الغرائب وعلينا الاستعداد للقادم وعدم الالتفات إلى الخلف. وافقه شمس الدين بهزة رأس بسيطة، فيما نهض السلطان وفي يده علبة صغيرة من القطيفة ومد يده لشمس مقدمًا له إياها:

-هذه هديتي البسيطة لك. فتح شمس العلبة ونظر فيها ووجد عملة منقوش عليها عبارة «خلد الله سلطانه».

ابتسم شمس ونظر إلى السلطان ليقول: أمرت بنقشها باسمي والقابي، السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين أبو الفتوح المنصور، علها تبقى بعد أن يزول سلطاني وتكون لي سيرة في تاريخ الصالحين.

صمت شمس وعلت إبتسامته على وجهه ودس العلبة في جيبه وقال باحترام: «السلام عليك أيها السلطان الصالح».

نزل شمس الدين من قلعة الجبل سيرًا حتى وصل إلى عربة أمتعة تجرها الخيول وشاهد أمامها عُمر واقفًا ليرحب به.

«كنت قائدًا حقيقيًا يا سيدي». قالها عُمر فربت شمس على كتفه ورد: «أنت لها يا عُمر، رشحتك للسلطان لتكون شيخًا للبصاصين».

وأشار بيده منذرًا: «أتق الله فيما تفعل واحفظ الحقوق».

ابتسم عُمر ورد بمحبة واضحة: «سأفعل».

أعاد شمس الدين نظره إلى قلعة الجبل وقال:

الأهالي يكثرون من الدعاء للسلطان بسبب قرارته العادلة التي اتخذها، منع كل وزير من الظلم وأخذ المواريث بغير حق حفاظًا على أموال اليتامى، كما انه أصبح يجلوس بدار العدل يومين في الأسبوع لسماع شكوى المتظلمين، ويتحدثون عن تصدقه على الفقراء ومحبته للناس وتقربه إلى عامة الشعب، واقتصاده هو وخواصه في الملبس.

وابتسم وزاد: بعد ما حدث، تبدلت شخصية لاجين وامتنع عن الخمر وأقبل على العبادة والصيام والتصدق سرًا، حتى أنه قبض على نائبه شمس الدين قرا سنقر وغيره من الأمراء.

وأكمل بنبرة حملت بعض الخوف:

لكن المشكلة أنه نصب مملوكه مَنكوتُمُر مكانه على غير رغبة الأمراء الذين كان قد حلف لهم قبل أن ينصبوه سلطانًا بأنه لن يخول مملوكه مَنكوتُمُر عليهم.

لم يرد عُمر، اكتفى بإبتسامة تنم عن تفكير وخوف من المستقبل. يعلم أن المرحلة القادمة في المحروسة مليئة بالرعب والخوف ولكنه رعب الواقع وليس المسوخ، رعب سفك الدماء والحروب والاغتيالات، خاصةً بعد أن أقدم لاجين بعد استشارة الأمير بيسرى في جعل مَنكوتُمُر وليًا للعهد وإقران اسمه باسمه في الخطبة والسك، وهو ما سيثير غضب جميع المماليك عليه وسيجعل عنقه مكشوفًا لهم لنحره.

ساد الصمت لثواني، كل منهما يفكر في القادم، يشعرون أن نهاية السلطان قريبة فلا أحد يتحدى المماليك بهذا الشكل، لكنهما لن يصارحا بعضهما البعض صراحة.

نفض شمس الدين رأسه كأنما يطرد تلك الأفكار منها واحتضن عُمر ثم ربت على ظهره وركب العربة وبجانبه زينب التي كانت تنتظره وعلى وجهها إبتسامة تسع العالم ومن فيه.

أمسك يدها وبيده الأخرى سحب اللجام وبدأ التحرك في طريقه إلى الخانقاه للاستقرار فيها، وأخذ ينظر طوال الطريق إلى البيوت والشوارع التي حوله ويتفحص وجوه أهاليها بمحبة حتى خاض الطريق الرملي الذي يقود إليها ليبدأ حياة جديدة مع حبيبته وحدهما في المكان.

***

النهايـــــــة

«أكمل يا عم سعيد». قالها الصحفي الشهير محمد عبد الرحمن، وهو يُعدل نظارته الطبية.

رد رجل جاوز الستين من عمره وهو يبتسم للصحفي ويكمل السرد:

يقولون إن هذه هي قصة القرافة التي أعمل فيها، يقال إن شمس الدين ألقى جزء من القلادة ليجذب بقوتها الشرور التي خرجت ويدفعها لتعود ثانية إلى عالمها، ثم عاد وبمساعدة حارس الخانقاه صنع حجارة مطلسمة عليها سحر يقلل ظهور الشرور التي إن خرج بعضها سادت في القرافة وحامت حول جثث الموتى ولا تخرج إلى عالم الأحياء.

ارتسم الذهول على وجه الصحفي الشهير، ورفع حاجبه تعجبًا، ليكمل عم سعيد: ظل شمس الدين في الخانقاه ولم يخرج منها لضمان عدم تحرر الشرور مرة أخرى من الحفرة أو البئر الذي يوجد في المقام حتى توفي ودُفن في المكان نفسه الذي صُنع للشيخ يعقوب وظلت زوجته زينب وأبنائها يتوارثون حماية المكان ومنع انفتاح الشق ويساعدهم في ذلك قوة القلادة وحارس الخانقاه.

وأشار إلى خانقاه مزخرفة بزجاج ملون وأرابيسك تنم عن

ذوق رفيع.

وأكمل: زوجته زينب هي التي اختارت تصميم تلك الخانقاه لنفسها قبل أن تموت، عاشا سويًا في المكان وجاء بعض المتصوفين الذين كانوا يأتون لقضاء أيام معدودة في الذكر بعيدًا عن الناس لتصبح الخانقاه مزارًا للجميع ولكن يُحرم دخولها ليلًا على الأغراب وظلت لسنوات كذلك حتى جاء الاحتلال الإنجليزي إلى مصر وتم هدم العديد من البيوت ولم يعد أحد يأتي إلى هنا بعد قرار منع دفن أي موتى في المكان.

تعجب محمد عبد الرحمن وسأل «غريب، لماذا هذا القرار»؟ أجاب سعيد: «لأنهم يقولون إن هناك مياه جوفية وخطورة في الدفن هنا، ولهذا أصبح المكان منسيًا على مر السنين ولا يأتيه أي شخص بل أن غالبية الناس لا يعرفون عنه أي شيء ولا يوجد خرائط تقود إليه.

سأل الصحفي متعجبًا وهو يتفحص المكان حوله: «لكنك تعيش هنا، لماذا اخترت أن تعيش في مكان مثل هذا وحدك»؟

ضحك عم سعيد وأجاب مبتسمًا: «تعودت».

وأردف: وهو يدقق نظره في المكان وكأنه يراه لأول مرة:

هنا الراحة، بعيدًا عن العمران وضوضاء البشر، أعيش هنا في بيت قديم أروي النباتات وأقرأ القرآن وأصلي وأذكر الله».

ضحك محمد عبد الرحمن وقال ممازحًا: «لكنك لا تصدق أي من هذا يا عم سعيد أليس كذلك»؟

ابتسم الرجل وبدت تجاعيد وجهه ظاهرة أكثر مع ضحكته: «كلها تخاريف، لا يوجد ما يسمى ببئر شرور أو أراضي أخرى غير أراضينا، نحن في ٢٠٢٣ يا سيدي الفاضل. أليس كذلك».

هز الصحفي رأسه في رضا برأي المُسن وقال بثقة: «بالضبط»، ثم نظر حوله للمرة الأخيرة وشكر عم سعيد واتجه إلى خارج القرافة وهو ينظر بسعادة إلى المقابر المتراصة والخانقاه التي تزين المكان والمآذن التي تظهر من بعيد وعلى امتداد البصر بدت قلعة صلاح الدين شامخة وبجوارها جبل المقطم.

يفكر في عمل تقرير عن هذا المكان المنسي، يريد أن يركز على ما لا يركز عليه الصحفيين الأخرين، يبحث عن التميز ويشعر أنه في هذا المكان.

نهض عم سعيد بعد أن اطمأن لرحيل الصحفي ودخل غرفته واقترب من بوتجاز قديم موضوع على منضدة

متآكلة وفتحه ليستعد لعمل كوب شاي ثقيل يريح أعصابه بعد أن تجاوز حواره مع الصحفي أكثر من ساعتين سرد فيها الأقاويل التي قيلت في سبب بناء المقابر والخناقاة.

«لماذا قلت له إن هذه تخاريف»؟

سمع السؤال من خلفه ولم يستدير، قال بضحك: «هذا الجيل لا يصدق إلا ما يراه، يظنون أن العالم آمن والحياة تسير في وتيرة واحدة والإنسان هو محور الكون، إن علموا الحقيقة أو شاهدوا جزء منها لجُنوا من فورهم».

أعاد القائل سؤال آخر: «لكنك كذبت عليه»؟

ابتسم عم سعيد مجددًا: «يحبون الكذب، لا يرضون إلا به، قالها جدي الأكبر شمس الدين وهو مبدأ أسرتنا على مر أجيال «البشر لا يقدرون على استيعاب الحقيقة بعد».

سأله المتحدث مجددًا: «ومتى سيدركون»؟

تنهد عم سعيد وصب الشاي في كوب زجاجي وبدأ يرتشفه بهدوء: «حين تبدأ النهاية وتخرج الشرور ثانية».

والتفت إلى السائل وقال متابعًا: «ونأمل ألا يحدث ذلك قريبًا يا حارس الخانقاه».

تمـــــــت

مصـــــــادر أحـــــداث تلك الفترة

بدائع الزهور في وقائع الدهور لـ ابن إياس.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لـ ابن تغرى.

تاريخ مصر الإسلامية لـ جمال الدين الشيال.

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثارلـ المقريزى.

مماليك مصر والشام لـ شفيق مهدي.

صحراء المماليك لـ خيري شلبي

صحراء المماليك (بوابة السماء الشرقية) لـ هاني حمزة

***

<u>عن الخانقاه</u>

<u>عن الكاتب:</u>

عبد الرحمن دياب صحفي وروائي صدرت له روايات منها أبناء العاصي والجيساس والحراس والغربان.